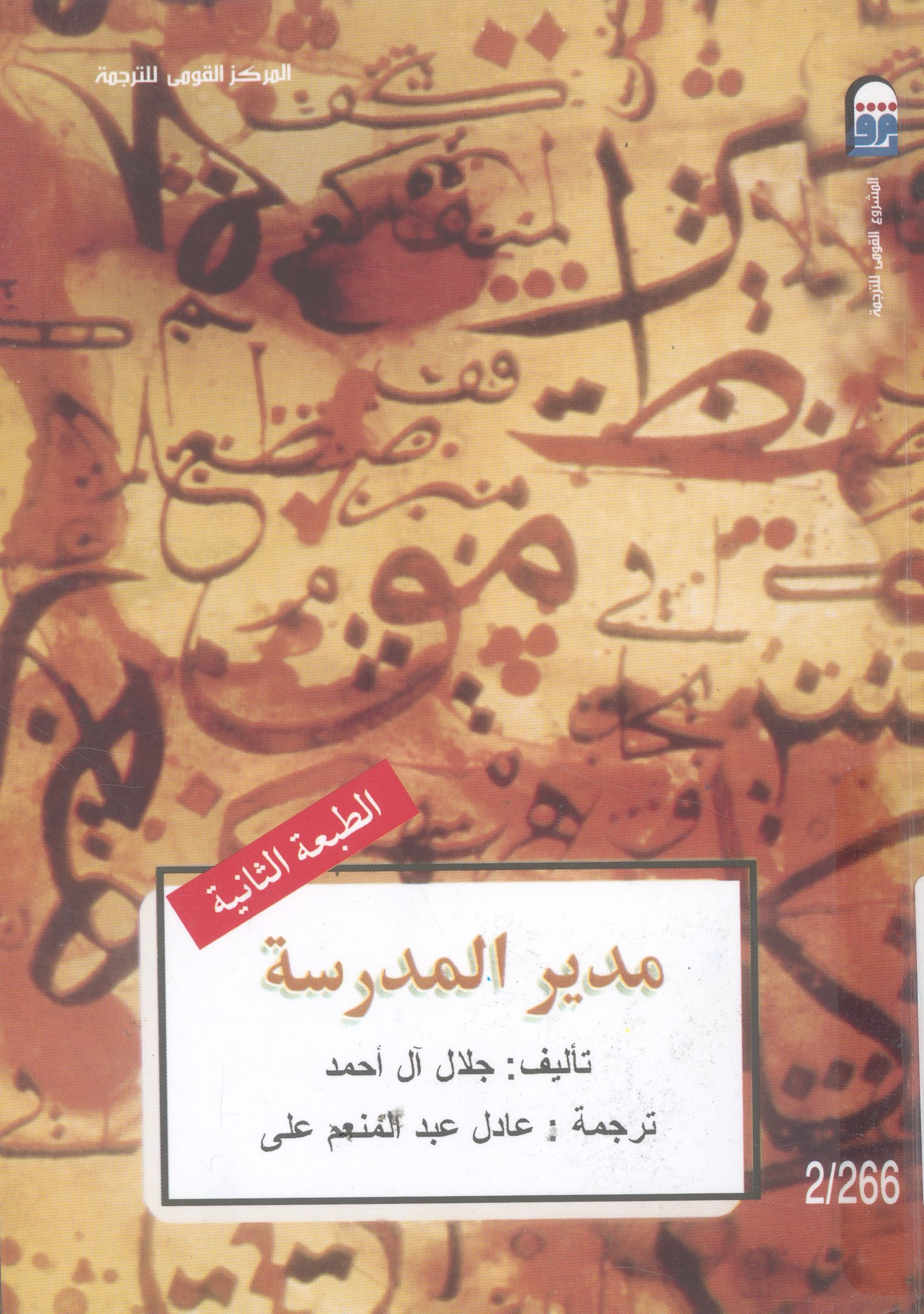


المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
الطبعة الثانية
مدير المدرسة
تأليف: جلال آل أحمد
ترجمة : عادل عبد المنعم على
2/266

مدير المدرسة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢٦٦/ ٢
- مدير المدرسة
- جلال آل أحمد
- عادل عبد المنعم على
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة
مدير مدرسه
نويسنده: جلال آل أحمد

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

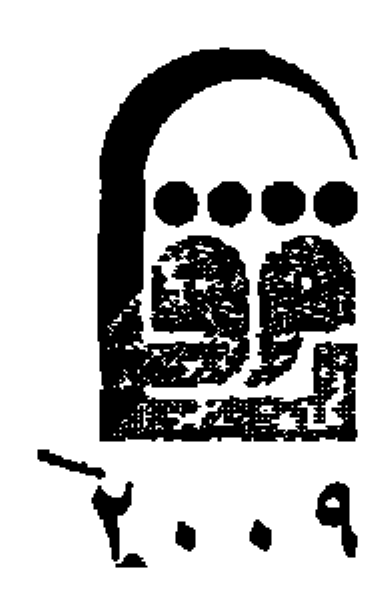
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

مدير المدرسة

تأليـف: جـلال آل أحمـد

ترجمـة: عادل عبد المنعم على



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٠٦٣٢
الترقيم الدولى: 9 - 290 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

مقدمة المترجم

إن كل كلمات الدنيا ، وما يجرى فيها من أحاديث قد صيغت حتمًا من تلك الحروف التى تتشكل منها كل لغات العالم سواء زاد عدد تلك الحروف أو قل ، وأى لغة يُكتب بها ... لاتفترق عن هذه القضية البديهية ؛ فكل مانعرفه من سباب أو شتائم ، أو أحاديث منمقة ، وكل النصوص المقدسة - سماوية كانت أو وضعية - بل وحتى اسم الله الأعظم ، ... كلها تكتب بنفس هذه الحروف فى أى لغة كانت ...

أود أن أقول إنه إذا حدث - لاقدر الله - ووضعت أمامك ورقة بيضاء تريد أن تسودها لتطمس بتسويدها الحق وتطأه تحت أقدامك ، عليك أن تتذكر أن عدة الشيطان وعتاده هى نفس هذه الحروف ، فالأحكام التى تصدر بإعدام جميع الأبرياء ، وأيضاً المجرمين والمذنبين والعصاة تكتب كلها بنفس هذه الحروف .... فاحرص كل الحرص على ألا يخط قلمك باطلاً ، واحرص كل الحرص على ألا تصبح هذه الحروف بين يديك أو فوق ورقتك أداة من أدوات الشيطان أوعدة من عتاده .

جلال آل أحمد

نون والقلم

« رواية صودرت فور صدورها »

بهذه الكلمات التى صاغها جلال آل أحمد على لسان أحد المتهنين بمهنة الكتابة فى روايته الشهيرة « نون والقلم » أراد أن يوجِّه أنظارنا إلى أن حروف الكتابة هى عدة كل كاتب ، وهى أيضًا عدة كل شيطان وأدواته فيما يقوم به من أعمال شيطانية ، فيجب ألا تستخدم هذه الحروف إلا فى إظهار الحق وإحقاقه والدفاع عنه ، ويجب على كل كاتب ألا يجعل من نفسه وسيلة من وسائل الشيطان فى طمس الحق ، وتضييعه على أهله . هكذا كان جلال آل أحمد فى كل قصة ، مظهراً للحق ، مؤيداً له ، مدافعًا عنه .

ولد جلال آل أحمد فى طهران سنة ١٩٢٣ م ، فى أسرة متديّنة وتلقى تعليمه بها إلى أن رحل وهو فى سن العشرين إلى النجف لتلقى العلوم الدينية ، لكنه مالبث أن عاد إلى طهران بعد بضعة أشهر ، حيث انضم إلى أحزاب سياسية مختلفة ، منها حزب توده الشيوعى ، وكان ذلك منذ سنة ١٩٤٤ م . إلا أنه لم يجد ضالته المنشودة فى أى من هذه الأحزاب ، وأخذ يعمل بالتدريس منذ سنة ١٩٤٧ م (١) ، حتى توفى سنة ١٩٦٩ م وفاة مشكوكاً فى أمرها (٢) وربما كان السبب فى ذلك وقوفه الدائم إلى جانب الحق فى كتاباته ، والدفاع عن هذا الحق مهما كانت العواقب .

وقد واصل جلال آل أحمد بعد عودته إلى طهران دراساته العليا ، وأوشك أن يحصل على الدكتوراه فى الآداب ، إلا أن المجتمع وحياة الإيرانيين وخاصة البسطاء منهم ، كانت أكثر جاذبية بالنسبة له (٣) ، فقد اكتشف آل أحمد خلال هذه الفترة أن الإسلام هو البنية التحتية الحقيقية فى الشعب الإيرانى فانصرف إلى دراسته من جديد ، وانفصل نهائيًا انفصالاً فكريًا عن حزب توده ، بعد انفصاله التنظيمى ، وتمثل الإسلام فى كل أعماله ، وحج إلى بيت الله الحرام ، ووصف رحلة حجه فى كتابه « خسى درميقات : قشه فى الميقات » وكان من أهم من وضعوا أساس الفكر الإسلامى الجديد فى إيران (٤) لقد أدى اهتمام جلال آل أحمد الخاص بالطبقات الشعبية ، وأهالى السوق والحارة إلى أن اعتبره النقاد كاتبًا ومفكرًا اجتماعيًا ، إلا أنه يجب الاعتراف بأن المشاعر والأحاسيس كانت هى المحرك الأول فى أعماله الأدبية أكثر من المعلومة المعرفية ، ويدل هروبه وجنوحه إلى السياسة والدين ، وتردده بينهما على أفكاره المتصارعة دوماً ، إلا أنه يمكن القول بحسم إن

معتقدات آل أحمد وأفكاره لم تكن مطلقاً تحت نفوذ المـادية ، بينما تنفذ العقيدة الدينية بعمق ووضوح فى كتاباته (٥) .

لقد كان اهتمـام جـلال آل أحـمـد فى السنوات الأولى من حـيـاته الفكرية موجهـاً إلى القصـة القصـيرة ، إلى جانب بعض المقالات التى نشرها فـى الكتب ، فـقـد ظهـرت له تباعـاً مـجـمـوعـات من القـصـص القصيرة : - ديد وبازديد ، « تبادل الزيارات » ١٩٤٥ م .

- ازرنجى كه مى بريم ، « من الألم الذى نعانيه » ١٩٤٧ م .

- سنتـــور ، « السنتـــور - آلـــة موسيقيـــة ذات ثـلاثة أوتـار - ١٩٤٨ م .

- زن زيادى ، « امرأة فوق العدد » ١٩٥٢ م .

- سرگذ شت كندوها ، « سيرة خلايا النحل » ١٩٥٤ م .(٦) .

ثم أتبع ذلك بفترة من الصمت لازمته بعد سقوط مصدق ومبادئه السـيـاسـيـة ، وخـلال هذه الفـتـرة - وكـأنه كـان يريد أن يوقظ عبـقـرتيـة النائمة - تحول آل أحمد إلى البحث فى عادات شـعبه وفنونه ولهجاته ، ومـا إلى ذلك من مـأثورات شـعـبيـة ، ومـعلومـات حول الحيـاة الريفـيـة فى مختلف أنحاء إيران .

وفى هذا الميدان ظهرت له دراسات ثلاث :

- أورازان - وهو اسم منطقة فى الطالقان الأعلى - ١٩٥٣ م .

- دره ٔ يتيمهء خليج ، جـزيرة خـارك ، « جزيرة خـارك درة الخليج اليتيمة - ١٩٦٠ م . (٧)

وفى هذا المؤلف نلمس مثالاً لغضبة جلال آل أحمد من الاندفاع فى العصـرية ، واعتناق طرق الحيـاة الأوربية ، وحقـيقـة أن انتشـار فسـاد

الأخلاق بين مواطنيه كان يدفعه إلى إدانة هذا الفساد ومحاكمته بشكل جاد ومتعصب ، ولمس ذلك أيضاً بجلاء ووضوح فى الكتاب الذى أصدره بعد ذلك .

- غرب زدگى ، « معاناة التغرب »

وهو كتاب شديد الخطورة فى تكوين الفكر الإيرانى الذى وقف وراء الثورة الإسلامية في إيران ، تأثر به فيلسوف الثورة الأول الدكتور على شريعتى تأثراً شديداً (٨) .

وآخر أعمال جلال آل أحمد فى ميدان الأعمال الروائية الرواية القصيرة التى بين أيدينا ترجمتها مدير مدرسه ، « مدير المدرسة - ١٩٥٨ م . ورواية أخرى طويلة تسمى « نون والقلم » ١٩٦١ م . (٩)

ولجلال آل أحمد مجموعة قصصية سادسة تسمى « پنج داستان ، خمس قصص » قامت باصدارها زوجته « سيمين دانشور » وأخوه « شمس آل أحمد » سنة ١٩٧١ م . بناء على وصيته قبل وفاته . (١٠) .

وبالإضافة إلى الدراسات التى أصدرها جلال آل أحمد وأعماله الأدبية الإبداعية قام بترجمة عدد من الروايات والكتب والمؤلفات من الفرنسية إلى الفارسية من أشهرها : المقامر لديستوفسكى ، والغريب وسوء تفاهم لألبير كامى ، والأيدى القذرة لجان بول سارتر ، ورحلة الاتحاد السوڤيتى ، والأغنية الأرضية لأندريه جيد . (١١)

ويتميز أسلوب جلال آل أحمد فى كل أعماله القصصية باستخدامه المفرط لصيغ الكلام ، ويمتد ذلك حتى إلى العبارات الوصفية ، كما أننا لا نستطيع أن نميّز بين الحوار المباشر وغير المباشر فى قصصه ، وفوق ذلك فهو سيد الاختصار والاقتصار فى التعبير ، وهو يصور شخصياته عند ظهورها باختصار ، ويتركها تأتى إلى الحياة من خلال حديثها .

ويلعب الاستهزاء والسخرية والمكاشفة الممتزجة بالفكاهة – وهى إحدى مميزات الشعب الإيرانى – دوراً كبيراً فى أعماله . وبالرغم من ميوله النقدية وأحياناً الثورية ، بقى جلال آل أحمد رجلاً من الطراز القديم من صميم قلبه ، معجباً بكل كيانه بالتراث القومى وخاصة بالقوانين الأخلاقية فى إيران . (١٢)

المترجم

الهوامش

(١) حسن عابدين ، فرضكَ داستان نويسان إيران ، ص ٢٦ .

(٢) حسن كمشاد ، النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقى شتا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ ، هامش ص ١٩٤

(٣) محمد استعلامى ، ادبيات دوره بيدارى ومعاصر – ص ٢٠٦ .

(٤) حسن كمشاد ، ترجمة الدسوقى شتا (المرجع السابق) هامش ص ١٩٣ .

(٥) مريم مير أحمدى ، تأثير ونفوذ مذهب در آثار جلال آل أحمد – مقاله بمجلة سخن » دور بيست وششم ، شماره ١٠ ، آذر ودى ماه ١٣٥٧ هـ . ش . ص ١٠٨١ .

(٦) قامت بترجمة هذه المجموعة إلى العربية د . رملة غانم .

(٧) حسن كمشاد ، ترجمة وتعليق د . الدسوقى شتا ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ .

(٨) المرجع السابق ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقى شتا ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية حامد الجر ، وله ترجمة عربية للدكتور إبراهيم الدسوقى شتا لم تنشر بعد ، وقد صدر هذا الكتاب فى إيران فور صدورة .

(٩) صدرت هذه الرواية فور صدورها أيضاً ، وتقوم بترجمتها إلى العربية الآن د . ماجدة العنانى .

(١٠) محمد محمود عبد المحسن ، الواقعية الجديدة فى القصة الإيرانية المعاصرة ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٦ م ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١١) حسن كمشاد ، المرجع السابق ، ترجمة وتعليق د . إبراهيم الدسوقى شتا هامش ص ١٩٣

(١٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

- ١ -

كانت السيجارة مشتعلة فى يدى ، عندما دلفت من الباب واضطررت لأن ألقى بالتحية ، ورغم حالة الارتباك والحيرة التى انتابتنى إلا أننى تمالكت نفسى . استقرت عينا مدير المنطقة التعليمية - الذى سمح لى بالجلوس - على يدى للحظة ، ثم انتهى من شىء كان يكتبه . وعندما همَّ بالانتباه إلىَّ وضعت فوق مكتبه صورة من قرار التعيين ، ولم أنطق بكلمة . أخذ يقلِّب صورة القرار والأوراق المرفقة ، ثم حرك فكه وقال فى هدوء لا يخلو من عصبية :

- ما عندناش مكان ياسيدى . . . ماينفعش كده . . همه كل يوم يحطوا قرار تعيين لواحد فى ايده ، ويبعتوهولى . . امبارح . . السيد المدير العام . . . . .

لم تكن لدىَّ القدرة على تحمل مثل هذه المهاترات فقطعت حديثه قائلاً :

- ممكن أطلب من سعادتك تأشر لى على نفس الورقة ؟

ونفضت سيجارتى فى منفضة السجائر اللامعة الموجودة فوق مكتبه . كان سطح المكتب نظيفاً ومرتباً . . تماماً مثل حجرة استقبال فى شقة عروس حديثة الزواج . . كل شىء فى مكانه ، لاتوجد ذرة من تراب ، فقط كان رماد سيجارتى هو الكثير ، مثل بصقة على وجهٍ

خُلق لتوه . . أمسك القلم وكتب شيئاً أسفل قرار التعيين ، ووقّع عليه ، وخرجت أنا من الباب الذى دخلت منه . . وانتهى الموضوع وقُضى الأمر .

لم يكن فى استطاعتى تحمل مثل هذه الشخصية ؛ فقد كان واضحاً من تصرفاته أنه حديثُ عهدٍ فى وظيفته كمدير للمنطقة التعليمية . . كان يحرك فكه بصعوبة ويضرب بكلماته بطيئةً فى وجه من يحادثه ، وكأنه ليس من الضرورى أن تكون هناك أذن للاستماع إليه .

كنت قد أنفقت مائة وخمسين توماناً فى الإدارة العامة لشئون الموظفين حتى تمكنت من الحصول على قرار التعيين ، وأخذت معى التوصيات اللازمة ، وداومت سعيى طوال شهرين ولم أترك شيئاً إلا فعلته ، وكنت على يقين من أن التعيين قد تم بالفعل سواء قبل هو أم لم يقبل . هو نفسه كان يعلم ذلك . . . ومن المحتم أنه قد أُسقط فى يده حتى أنه ربما احتقر نفسه على هذا العويل والصراخ الذى صدر منه . ولكن قُضى الأمر وما حدث قد حدث .

كانوا قد نصحونى فى الإدارة العامة لشئون الموظفين بأنه علىّ لكى أعتمد المذكرة أن أقوم بعرض صورة من قرار التعيين على مدير المنطقة التعليمية .

وقد حدث هذا بالفعل منذ قليل . فمن ذا الذى يستطيع أن يُصدر كلمة فوق قرار الإدارة العامة لشئون الموظفين ؟ إنها وزارة بالفعل ، وإدارة حقيقية لشئون الموظفين . . . لم يكن هذا مزاحًا .

كانت أعطاف قلبى أوسع من أن أكـون محتـاجًا لمثل هذه الأدلة والبراهين ، ولكن فى رأيى كان الخطأ كله بسبب هذه السيجارة اللعينة التى تخيَّلت أننى سـوف أدبر مصاريفها من الزيادة فى مـرتب الوظيفة الجديدة .

من المؤكد أننى قد ضقت ذرعاً بوظيفتى كمدرس . عشر سنوات فى تدريس أ . ب . . . . . أمام وجـوه أطفال مندهشة ، مبـهوتة لمـا تقوله من أحاديث وأقاويل منمَّقة . . . وكتابة - الاستغناء - بالغين - والاستقـراء - بالقاف ، والأسلوب الخرسانى ، والهـندى ، وأقدم ما فى الفارسية من أشعار ، وصناعة إرسال المثل ، ورد العجز على . . . بسبب كل هذه التـفاهات والمهاترات رأيت فـى نفسى أننى أوشكت أن أتحول إلى حمـار .قلت لأصبح مديراً لمدرسة ، مديراً لمدرسـة ابتدائية لن أعود للتدريس مـرة أخرى ولن أفقد أعصابى كل لحظة أمـام صبية تتراوح أعمارهم بين اثنتى عشرة وأربع عشرة سنة ، ولن أكون مضطراً لأن أمنح كل غبى لاشعور له درجة النجاح كى أفلت من تضييع وقتى فى وضع وتصـحيح امتـحانات الدور الثـانى والملاحق وأنقـذ الأيام الأخيرة من عطلتى الصـيفية التى تعتبـر ألذ فترة فى العطلة . راودتنى كل هذه الأفكار وأنا فى طريقى . ذهبت وسألت عمن يتدخل فى هذا الموضوع ، وانتـهى الأمر بأن أعطتنى إدارة شئـون الموظفين يومًا عنوان إحدى المدارس ، كى أذهب إليها وأعاينها ، وأقرر إن كنت أرغب فى إدارتها من عدمه . . . وذهبت .

كانت المدرسة بناية حديثة البناء تتكون من طابقين ، تقف وحيدة فى حضن جبل ، تشرق عليها الشمس من كل جانب ، بناها أحد الأغنياء من محبى العلم ومشجعيه وسط أراضيه الشاسعة ، وقام بتسليمها إلى المنطقة التعليمية منذ خمسة وعشرين عاماً لكى يديروها كمدرسة ابتدائية ، وتدب الحياة فى المنطقة ، وتعبَّد طرقها ، ويبعد الطريق على الأطفال فترثى قلوب ذويهم لحالهم وترق ، ولكى تقصُر الطريق على فلذات أكبادهم يأتون ليشتروا الأراضى حول المدرسة ليقيموا فيها منازل لهم وبيوتاً ، ويرتفع بذلك ثمن أرض أخينا هذا الذى قام ببناء المدرسة ، من ريال للمتر الواحد إلى مائة تومان .

كان « أخينا » هذا قد كتب اسمه فوق المدرسة على لوحة من بلاطات الكاشانى بخط جميل على أرضية زرقاء ، وزينه بالزخارف النباتية . – من الطبيعى أن تكون المدرسة على اسمه – ولم يكن قد ظهر للمدرسة جيران بعد ، ليجرجروا أقدام سعدى وبابا طاهر ، وينقشوا ورقة أخرى من تاريخ الشعراء على حوائط حاراتهم وأسوارها ، كانت اللافتة تقبع فوق المدرسة كبيرة ضخمة ومقروءة تصرخ بالوضوح من مسافة مائة متر . . كتب عليها

توانا بود هركه . . . . كل ما يتمناه قلبك

وعليها شعار الشمس والأسد الذى وقف على ثلاثة أقدام يحاول بصعوبة أن يحفظ توازنه ، وشمس هانم تركب فوق أكتافه بحواجبها المتصلة وتمسك بسيف فى يدها .

على مرمى ثلاثة سهام كانت الصحراء تحيط بأعطاف المدرسة ، صحراء موحشة لاماء فيها ولاعمران ، وتلك الناحية المتجهة للشمال كان بها صف من أشجار الصنوبر المتشابكة تطل من فوق سور من اللبن لحديقة ، لتضرب السماء ببقعة قميئة اللون على ارتفاعٍ عالٍ .

من المتوقع بعد مضى خمسة وعشرين عاماً أخرى أن تمتلأ هذه المنطقة كلها بنفير السيارات وصياح الأطفال ، الباعة الجائلين ، وباعة الصحف . لقد أصبحت هذه المدرسة بمثابة الدجاجة التى سوف تبيض ذهباً لأخينا هذا الذى أنشأها ، إذ ربما لم يشتر المتر فى هذه الأراضى بأكثر من عشرة أو اثنى عشر ريالا ! وربما سجَّل هذه الأراضى أيضًا بنفس الأسلوب . . . « اصحى . . فوق ، وأنت مالك ياغبى ! » .

نعم كانت كل هذه الأفكار تراودنى فى نفس اليوم الذى وصلت فيه إلى هذه المدرسة لايعرفنى أحد ، وانتهت بى كل هذه الأفكار إلى أن الناس لهم الحق كل الحق فى أن يناموا على الجانب الذى يريحهم ، وحادثت نفسى « إن كنَت رجلاً تجرأ وكن مديراً لهذه المدرسة » .

ذهبتُ وتابعتُ موضوع التعيين ووصل الأمر فى النهاية إلى أن أصبحتُ بالفعل مديراً لهذه المدرسة .

علمتُ فى نفس يوم وصولى أن المدير السابق للمدرسة يمضى عقوبة فى السجن ، ومن الطبيعى أن تفوح من ملابسه الآن رائحة العدس ولابد أنه يقضى الآن عقوبةً لجريمةٍ لم يرتكبها ، أو ارتكبها

شخص ما فى مدينة أخرى ، لم يكن لدى مدير المنطقة التعليمية شخص من معارفه سوف يزداد راتبه إذا أصبح مديراً للمدرسة ، واضطر فى النهاية لأن ينسى هذا الأمر ويكف عن مماطلته لى ، فلم يكن هو نفسه على استعداد لأن يتخلى عن مركزه أيضاً ، كنت قد توصلّت إلى هذه المعلومات فى شئون الموظفين ، وأخذت أفكر فيها ولم تكن أمامى فرصة لأن أحدث نفسى بأن أخينا السجين سيخرج من سجنه بهذه السرعة ، كما لم أكن أعتقد أن شخصاً مثله يشتاق للعودة للإقامة فى مثل هذه الصحراء بشتائها القاسى ، وصعوبة التنقل فيها ، وبهذا ارتاح ضميرى وهدأ تفكيرى .

فضلاً عن كل هذا فإن الإدارة العامة لشئون الموظفين كانت قد أصدرت موافقتها النهائية بالفعل ! صحيح أنهم قبل أن يشمّوا رائحة نقودى كانوا يتحدثون عن بعض الصعوبات التى تمنعنى من الوصول إلى مثل هذه الوظيفة ؛ على سبيل المثال قالوا : - إن الموضوع يحتاج إلى إعادة نظر فلا يمكن لموظف مثلى أن يصبح مديراً لمدرسة ابتدائية وليس له خبرة فى التدريس أكثر من عشر سنوات ، كانوا يقصدون بذلك أننى لابد أن أكون مختلاً فى قواى العقلية حتى أنفض يدى من وظيفة التدريس المهمة المحترمة ، أو أننى ربما كنت عنِّينا أو من المصابين بالشذوذ مع الأطفال والغلمان ، أو أى شىء من هذا القبيل .

وصل الأمر إلى الحديث بمثل هذه التلميحات ، حتى فهمت أننى يجب أن أفتح حافظة نقودى ، وقد فعلتها ، فمائة وخمسون توماناً

بدل إقامة لم تكن فى تلك الأيام بالنقود القليلة التى يمكن إغفال أمرها ، وحتى لو تغاضيت عنها ، فماذا سيكون ؟ سوف أضطر للعودة إلى نفس الفصول وحصص القراءة والإنشاء ، وكتب التراث وكتب الثقافة ، وما إلى ذلك من حماقات .

فكرت فى كل هذا أثناء رجوعى من مكتب مدير المنطقة التعليمية إلى الإدارة العامة لشئون الموظفين ، وأخذت أبحث عمن يتفهّم مشكلتى ، وتركت أمامه صورة قرار التعيين ، ورويت ما حدث مع مدير المنطقة .وبعد يومين ذهبت أسأل عن الطلب ، واتضح أن ظنّى كان فى محله ، وأن مدير المنطقة قال فى معرض حديثه عنى : «أنا لا أرى فائدة تذكر فى هؤلاء الحاصلين على الليسانس الذين يدخلون أى مكتب والسيجارة فى أيديهم ».

وأن أحدهم رد عليه : « أبدًا .... مطلقًا ، ففلان هذا كذا وكيت ويختلف عن الآخرين بفرق ما بين السماء والأرض » ارتاح خاطرى مما عرفته هذا ، وقلت لأذهب إليه يوم الخميس من الأسبوع التالى ، وهذا ما فعلته .

فى هذه المرة وجدت مدير المنطقة بمجرد أن رآنى يقف منتصباً ويقول :« يا سيدى ... ليه ماقلتش من الأول ؟ ... » وتبادل معى الحديث والضحكات على هذا النحو ، وقدم لى كوبًا من الشاى وأخذ يشكو من رؤسائه ومرؤوسيه ، وعلى حد تعبيره فقد وضعنى فى

مـجريات الأمـور التى تحـدث فى موقع العـمل ، ثم قـام بتوصـيلى بسيارته إلى المدرسة ، وعندما وصلنا قال : « لقد ضربوا الجرس مبكراً عن موعده » وقام فى حضـور المدرسين وسكرتير المدرسة بإلقاء خطبة عصـماء فى صفـات وفضائل المدير الجـديد - الذى هو أنا - وبعدها ذهب وتركنى مع مـدرسة حـديثـة التأسـيس ، ذات ستـة فصـول ، وسكرتيـر ، وسبعـة مدرسين و ٢٥٣ تلمـيذًا وبهـذا أصبحـت مديراً محترمًا لمدرسةٍ ابتدائية .

- ٢ -

كان سكرتير المدرسة شابًا يافعًا يتحدث دائمًا بصوتٍ عالٍ ، يوجه أوامره ونواهيه فى سهولة ويسر وكأن فعل الأمر اذهبْ . تعال قد التصق بفمه ، وكان على اتفاق ضمنى مع كبار التلاميذ أن يقوموا هم أنفسهم بترتيب وتنظيم شئون المدرسة ، كان واضحاً أنه لايحتاج حتى إلى رأس حمار ، ويستطيع أن يدير دفة المدرسة دون أدنى احتياجٍ لمديرٍ لها .

أما مدرس الصف الرابع فقد كان بديناً بشكل مفرط كأنه اثنان لكل منهما جثة ضخمة قد التصقا فى بعضهما . كان أول شيء تقع عليه عينى فى مكتبى شخص من هؤلاء الذين إذ رأيتهم فى الطريق تظن أنه أحد مديرى العموم ، كان يتحدث بألفاظ منتقاة ؛ وربما لهذا السبب كان هو الذى قام بعد أن تركنا مدير المنطقة بالترحيب بى نيابة عن زملائه ، فقد قال حينها « إن شاء الله سوف نقضى عاماً دراسيًا جديداً فى فصول المدرسة فى ظل مديرها الجديد » ، كان واضحاً أنه بهيئته هذه سوف يتعالى شيئًا فشيئًا عن كونه يعمل فى مدرسة ابتدائية ، عندما كان يتحدث كان دائمًا يراودنى تفكير كيف يتاح لمدرس مثله مع راتبه القليل أن يكون له هذه الهيئة والوسامة ؟ فى الحقيقة قررت من وقتها أن أحلق ذقنى كل صباح ، وأن تكون ياقتى نظيفة دائمًا ، وبنطالى مكوىّ بشكل جيد .

أما مدرس الصف الأول فقد كان نحيفاً ، لونه أسود فاحم ، له لحية صغيرة أسفل ذقنه ورأس حليق بشكل جيد ، وياقة مقفلة دائماً دون أن تغلقها رابطة عنق ، يشبه تماماً هؤلاء الكتبة الذين يجلسون أمام أبواب مكاتب البريد ، بل إنه كان يبدو كأنه بواب ، كان دائمًا ما يلتزم الصمت ، وكان له الحق فى ذلك ، فقد كان حقيق بى أن أأكد أن مثل هذا الشخص ليس لديه الجرأة على الحديث سوى داخل الصف الأول ، وأن حديثه داخل الفصل لايخرج أيضاً عن الألف بمد ، والسين فى كلمة وسط . . . وما إلى ذلك . . . أما مدرس الصف الثانى فقد كان قصيراً مخبولاً ، يصدر منه صياح بدلاً من كلماته ، مصاب بحول فى عينيه ولم أفهم فى يومى الأول فى المدرسة إلى أين ينظر عندما يتحدث مع أحد ، ومع كل صوت صغير يصدر منه كان يقهقه بصوتٍ عالٍ . كانت هيئته تنمّ عن أنه مهرج بين المدرسين ، فهو يرى من واجبه أن يتواجد معهم فى كل فسحة ليكون مصدراً للتفريح عن زملائه . ولم يكن لدىّ ما يمكن عمله إزاء هذا الموضوع ، لكن كنت دائما أرثى لحال التلاميذ إذ كيف يكون فى مقدرتهم التزام الصمت فى فصل يقف أمامهم فيه مثل هذا المدرس .

أما مدرس الصف الثالث فقد كان شابًا نحيفًا ، طويل القد ، ذاوجه منحوت ، وذقن حليق بشكل جيد ، وياقة قميص عالية منشّاة،عندما كان يمشى كان يراودنى الشك فى أن أقدامه سوف تتعثر ، ويسقط على الأرض ، لكنه كان فى حركته مثل الفريرة ،

يتحدث فى عبارات متقطّعة ، وكأن قفصه الصدرى لايمكن أن يحتوى أكثر من ثلاث كـلمات . كانت عيونه تـصدر بريقًا عجيـباً لاينم عن ذكاء ، إنما كـان هناك شيء فـى بريق عينيه ينم عن أنه مـصاب بمرض ما ؛ ممـا اضطرنى لأن أسـأل السـكرتيـر عـمـا إذا كـان مصـاباً بداء السل ، وبالقطع لم يكن كذلك ، لكنه كان ريفيًا ، يعيش حياته فقط ويدرس فى الجامعة .

أما الصف الخامس والصف السادس فكان يديرهمـا مدرسان معًا أحـدهما يقـوم بتدريس اللغـة الفـارسيـة والعلوم الشرعـية والتـاريخ والجغـرافيـا والمهارات وما إلـى ذلك من هوايات ، كان شابـاً يصفف شعره بالكريم يرتدى بنطالا ضيق الأرجل وجاكت ورابطة عنق صفراء عريضة عليها صورة لهلب كبير كأنه يحمله على صدره ، ودائما ماتراه وهو يمسح بيده على شعره ، وبين لحظة وأخرى يعاود النظر من زجاج النافذة أما المدرس الآخر فهو الذى كان يقوم بتدريس الحساب والمرابحة ومواد أخرى وكان شابًا وقوراً مـتزنًا لدرجـة يبدو معـها أنه من أهالى ما زندران ، كان على ثقة بنفـسه ، وكان المدرس الوحيد بين المدرسين الذى يحتـفظ بعلبـة سجـائر فى جيبـه ، كان واضحًـا أنه موفق فى فصله .غيـر هؤلاء كان لدينا مدرس للألعاب ، وهو الـذى رأيته بعد ذلك بأسبـوعين ، كان من أصفـهان ومن هؤلاء المتسـربين من عملهم دائماً ، فقـد كان لا يأتى فى الأسبـوع أكـثر من ثلاثـة أيام ويتغيَّب بقية الأسبوع .

كان عليَّ أن أعمل مع مثل هؤلاء الرجال ، وأتقدم بالمدرسة بمعاونتهم . فمتابعة ٢٥٣ تلميذًا وتوصيل المعلومات إليهم ، ونقلهم ناجحين من صف إلى الذى يليه لم يكن بالأمر الهيِّن ، ولكن بالنسبة لشخص مثلى قد هرب من قفص التدريس فأى مكان من الممكن أن يكون جنة ، وكل عمل يصبح مرغوبًا فيه ، كان هذا حيث شمرت عن ساعد الجد وألقيتُ بنفسى وسط المعترك .

فبعد أن رحل مدير المنطقة التعليمية وتركنى معهم أخذت أسأل عن أحوالهم جميعاً بكل حميمية ، ثم جاملت الجميع بأن قدمت لهم السجائر ، وكنت فى قمة رغبتى فى التعاون والتضامن مع الجميع ! وسعيداً لأنه سوف تتاح لى الفرصة لأتعرف على مثل هذه النماذج الجديدة من البشر ، وأننى سوف أخبر بقلب كل واحد منهم ، وأننى سوف أدخل عالماً جديداً كان مغلقًا علىّ من قبل .

أخذتُ أسأل عن أحوال كل واحد منهم . كان مدرس الصف الثالث هو فقط الذى يذهب إلى الجامعة ويدرس فيها ، وهذا الذى يحتفظ بهلب على صدره كان يدرس اللغة الانجليزية فى دراسة مسائية لكى يذهب إلى أمريكا ، كان المتزوجون منهم اثنين فقط كاتب البريد مدرس الصف الأول ، والمدير العام مدرس الصف الرابع .

كان هؤلاء المدرسون يقضون أوقات الفسحة ، وما بين الحصص فى حجرتهم دون تناول الشاى أو أى مشروب يثرى جلساتهم ، يتجمعون فقط فى المكتب ليثبت كلُ منهم للآخر أنه قد خرج سالماً

من الفـصل ليعـاود الكرة ، ولـم يكن من الممكن أن يسـتمـر الوضع هكذا؛ فهناك تقاليد يجب أن تراعى . مددت يدى بخمسة تومانات ، وضعتـها فوق المنضدة واتفـقنا على أن يتم تجهيز كل مـا يلزم لإعداد الشـاى ، وأن يقـومـوا بأنفسـهم بإعـداده ، وتم تكـليف ذلـك (الأحول) بهذه المهمة .

بعـد ذلك ضربوا الجـرس ، واصطف الأطفال فى طوابيـرهم ، ووقف السكرتير قلقًـا أمام باب الحجـرة - كأنه يريد أن يقول شيـئًا - إلى أن حضر (المدير العـام) لمساعدته - فقد كـان هو نفسه يعلم أنه بهيئتـه هذه يستطيع أن يدخل أى مـكان ويتدخّل فى أى مـوضوع أو مشكلة - وأخبرنى أنه من الأفـضل أن ألقى كلمة أمام الطابور ولم أر غضـاضة فى هذا . قام السكرتيـر بتلخيص الموضوع فى كلمـتين أمام الأطفال ، وأخبرهم أننى وصلت فأخذ الجميع فى التصفيق .

كانت رؤوس الأطفال جميعها حليـقة ، بعضهم له ياقة بيضاء ، وأغلبهم يلبس حذاءً فى قدميه ، كان ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر تلميذا يرتدون مـلابس تئن فوق أجسادهم ، وكان هناك طفل صـغير الجسم ذو شعر أحمـر يقف فى طابور الصف الثالث يحاول أن يخفى جيب سترته الممـزق ، بينما كان تلاميذ الصف السـادس يهمسون فى آذان بعضهم بعضًا ، وعندمـا وقفت أمامهم كان هناك فى قلب طابور تلاميـذ الصف الأول تلميـذان أو ثلاثة يحاولون تنظيف أنوفـهم بكُم سترتهم . لم يكن لدىّ ما أقوله لهم ، أتذكر فقط أننى أشرت إلى أنّ

المدير الجديد يود من كل قلبه أن يكون كل تلميذ منكم فى منزلة ابنه ، ولا يدرى الآن ما الذى سيفعله مع هذا العدد من الأبناء . فضحكوا دون صوت ، بينما انفجرت ضحكة من أحدهم فى الصفوف الخلفية . وأدركتُ حينها أن التعامل مع الأطفال يستلزم أساليب خاصة حتى فى لغة الحوار . بعد هذا الموقف تملكنى الشعور بصعوبة الأمر «لا ياسيدى ليس الأمر سهلاً كما توقعت ! » .

قبل هذا كنت أحسب أننى سوف أذهب وأنا فارغ البال والخاطر من التدريس وإدارة الفصل لأغلق باب حجرة مكتبى علىّ وأباشر مهام وظيفتى ويقوم السكرتير أو أى شخص آخر بإدارة دفة الأمور ، وأن تكون هناك تشكيلات إدارية بحيث لايحتاج الأمر إلى تدخلى ، لكنى أدرك الآن أن الأمر ليس بهذه السهولة . هب أن تلميذاً منهم قام فى الغد بضرب زميلٍ له وشجّ رأسه ؛ أو أن واحداً منهم صدمته سيارة ، أو سقط أحدهم من الطابق العلوى ، فما الذى سيقع على رأسى ! ولم أعد أتذكر الآن ماذا قلت لهم فى كلمتى ، وما بقى فى ذاكرتى هو أنه عندما علا صوت الجرس واتجهت الطوابير للسير إلى الفصول كان العرق يغمرنى ، وأخذت أتمشى فى الردهة حتى يتحرك المدرسون من أماكنهم ثم دخلت إلى مكتبى .

كان معى السكرتير فى مكتبى عندما دخل شبحٌ من فتحة الباب ، يتسحّب فى بطىء إلى الداخل .. كان هذا الشبح رجلاً ، فرّاش المدرسة بوجهه الريفى وذقن غير حليق ، وقد قصير ، كان يمشى فاتحاً

قدميه ، يحافظ على يديه أثناء سيره بعيدة دائمًا عن جسمه ، وعندما يتكلم تتلاحق أنفاسه ، وكأنه وصل لتوه من مسابقة في العدو . دخل وظل واقفاً إلى جانب الباب ، وأخذ ينظر مباشرة إلى عينيّ . سألته عن أحواله أيضًا فأيا كان هو .. وأيًا كانت وظيفته فهو يستطيع أن يتحمل جزءاً من هذا العمل الثقيل ، وكان معه في المدرسة زوجته وطفله الذي يحتمل أن لعبه أكثر من المألوف ، كان راتبه تسعين تومانًا . يسكن هو وأسرته في حجرة مخزن إلى جوار دورة المياه . ولم يكن قد استطاع بعد الحصول على بدل حراسة للمدرسة الذي يصل في الغالب إلى خمسة تومانات شهريًا ، ورغم ذلك كان قد اشترى زوجين من السجاد الصغير بالتقسيط بمبلغ ٣٥٠ تومانا بقى عليه منها ٢٠٠ تومانا فقط . استطاع أن يفرغ كل أحزان قلبه أمامي في دقيقة واحدة . وبعد أن سألني الدعاء له ذهب ليحضر لي كوبًا من الشاى .

قال السكرتير متحدثًا عنه : كان من الفلاحين في أملاك صاحب المدرسة ونتيجة لإصراره قامت مديرية التعليم بتوظيفه ، وهناك بند كامل بشأنه في بنود اتفاقية تسليم المدرسة للإدارة التعليمية . وأدركت حينها أنه يعتبر هو وزوجته وابنه من مستلزمات المدرسة وأثاثها . وكنت أعلم بخبرتي أن الخدم الذين ينتقلون مع انتقال الملكية يصبحون سببًا في إثارة المشاكل في أى شيء يفعلونه ، صرحت بهذا للسكرتير فانفتحت أحزان قلبه وقال : « أد إيه هوه خاين للعيش والملح وأد إيه وشه مكشوف ، وكام مرة لحد دلوقتي يقف في وش الأساتذة » وما

إلى ذلك من أقاويل . . . إلى أن انتـقلت إليه هو شخصيـاً . كان قد تخرج من معهد المعلمين منذ عـام ، وعمل مدة هـذا العام فى مدينتى « كَرمـسار وكرج » ، وانـتقل إلى هنا مع بداية هذا العـام ، كان أبوه متزوجاً من امرأتين ، له من الأولى ولدان ؛ تم انتشال جثة كل منهما من النهر مطعـون بسكين ، أما من زوجته الثـانية فلم يعش إلا هو ، حيث تعلَّم وتخرَّج وأصبح ملزمـاً بالإنفاق على أمه المريضة ، أما عن أبيه فقـد انقضت سنوات انقطعت أخباره فيـها ، والأسوأ من هذا كله تحمّله لأعـباء ومصاريف العـلاج والدواء . . . وهو يسكن مع أمه فى حجرة يبلغ إيجارها خـمسة وخمسين تومانا شهـرياً ، بينما يبلغ راتبه مائة وخمـسين توماناً لاتفى بشىء يذكر ، وربما استطاع بصـعوبة بعد ثلاث سنوات أخـرى أن يحـصل عـلى بـدل السـكرتـارية فى هذه المدرسـة . . . . بعـد أن عرفت منه كل هـذا قمنا مـعًـا كى نمر على الفصول .

كـان الصف الثـانى إلى جـانب مكتـبى ، حيث كـان الأطفـال يحاولـون فى جهد جـمع ١,٧٥٤ مع ٢٦١ ، بينمـا مدرسهم بعـينه الحولاء يشير إلى المقعد الثالث ويذهب إلى الأول . بعد الصف الثانى مباشرةً كان يوجد قاعة ، خالية واسعـة يحمل سقفها عمودان مربعان طُلِيـا باللون الأبيـض وفـى آخـرهـا ثلاث أو أربع مناضـد وأريكة محطـمة ، وقد غُطى الحـائط المواجه بصـور أبطال الرياضة الإيـرانية التـقليدية ، وأبطـال اخـتـراق الضاحـية السـود ، والمصريين رافـعى

الأثقال ، أما الحائط على الناحية اليمنى فقد غطته خريطة كبيرة لآسيا وعليها إهداء تحـتها «إهداء للمدرسة من على مردان هنـدى » كماركة مسـجلة لمصنع من رسمـها . خطوطهـا بدائية ، ولون زرقـة بحارها باهت مثل ريق الميت ، وبحر الخزر فيها على هيئة صدرية ، وخطوط السكك الحديدية عـريضة تملأها كلهـا ؛ حتى أنها تمر على كـرمان . وجزر أندونيسيا كلها كـتلة واحدة وتلتصق بسنغافورة ، وكل قطعة أو مسـاحة فى أسـفل الخريطة لهـا لون محـدد . وهى مجموع الألوان الموجوده فيـها مثل بقجة من القمـاش مرقعة برقع كثـيرة ، وكل عقلة إصبع فـيها مـحددة بعلامـات الحدود ، وعليهـا شعارالدولة وعلمـها والعملة والطابـع ، وما إلى ذلك من التفـاهات ، وكل دولة أو إمارة فى يد أميـر أو خان أو شيخ يقـودها هو وقبيلتـه أو أسرته إلى طريق الحرية والرفاهيـة والعمران . وتذكرت تلك الأيام التى كنت أمر فـيها بنفس المرحلة التعليمـية . وأدركت بالفعل كيف كانت الأمـور مريحة بالنسبـة لنا عندما كنا أطفالا منذ عشـرين عامًا ! حتى خـريطة العالم التى كنا نرسمهـا لم نكن نحتاج فى رسمهـا لأكثر من لونين أو ثلاثة لرسم آسيـا كلها وأفريقـيا واستـراليا ؛ فقـد كنا نستـخدم اللون البنى للتعبيـر عن الامبراطورية الإنجليزية فى نصف آسيـا وأفريقيا ، واللون القمـحى لفرنسا فى نصف الكرة الآخر ؛ والأخـضر أو الأزرق - لا أعلم - لهولندا وباقى الدول الأخرى ، أما الآن فـما أعجب ما يفعله ويرسمه هؤلاء الأطفال » .

قلت هذه الجملة الأخيرة بصـوت مسمـوع ، فسأل السكرتير : « حضـرتك بتقـول حاجـة ؟ » قلت : لاشىء . . . وسألت : فـيم تسـتخـدم هذه القـاعـة ؟ وكانت الإجـابة : لاشىء . . . لافـيلم ، ولانشاط اجتمـاعى ولاتمثيل ، فهى تستخدم عند الامـتحانات فقط ، فالدخول إليها يثير حاسة الشم عندك قليلا ، عندما تتعرف على رائحة عرق الأطفال الذى يتصبب منهم وهم يؤدون الامتحانات التحريرية ، وتحس فيها بحرارة أجسامـهم التى أصيبت بالحمى . كانت هذه القاعة تماماً مـثل حجـرة أغلق بابها بعـد أن أطفئت فـيها المـدفأة بالأمس ، ووجدت نفسى أتحسس الحائط رغماً عنى . لم يكن ساخناً ، وكذلك كانت الأعمدة التى تتـعجب لسمكها ومتانتها وكيـف تحمل فوقها كل هـذا العبء من التـعليم والثـقافـة والتربيـة ، ثم صعـدنا إلى الطابق العلوى .

كانت هناك خمس حـجرات مصطفة إلى جانب بعضـها البعض أمامـها إيوان مفـتوح ، تسطع فيـه الشمس ، وكلمـات القرآن وآياته تخرج من نـافذة الصف الرابع مـجلجلة فى تجويد مـتقن لتـسرى فى الصحراء التى انبسطت حول أرض المدرسة والتى تسطع الشمس فوقها بأشعتها الذهبية لتكسـبها مهابةً وجلالا . إنه نداء الإسلام ! أى باعث فـيه علـى الطمأنيـنة والسكينة ! لهـؤلاء الأهالى الذين لم يأتوا بعـد ليقيموا فى هذه الأراضى ويحفروا آبار الحياة فيها . لاخطأ لاوقف فى غير موضعه ، لا إدغام فى غير محله ، كنت على يقين من أن معلمه ليس له أى فضلٍ فى هذا الأمر ؛ فمن المؤكد أن هذا التلميذ يتردد فى

المساء على مجالس قراءة القرآن لأن القائمين على مدارسنا ليس لهم مثل هذا الرواء . فعلاً . . حق للأهالى القادمين إلى المنطقة أن يرتاح بالهم .

كان الصف الثالث إلى جانب درج السلم ، علموا بقدومى فأخذت المقاعد تصدر أصواتها . كانوا فى حصة إملاء ، ومدرسهم يدور حول الفصل بنفس الأقدام التى تشبه الفريرة ، ويملى عليهم « سعدى آزاده اى است افتاده » ونظرت تحت يد أحدهم فإذ به قد كتب « آزادئيس توفتاده » وآخذنا نكمل المرور على بقية الفصول .

كان مدرس الصف الرابع قد جلس بشقله ، وتعجبت كيف يتحمله الكرسى . لم أميِّز فيهم ذلك التلميذ الذى كان يقرأ القرآن ، فلو كنت قد دخلت عليهم لكان الجميع قد وقف ، ولم أكن أريد لأزعجهم فأطللت برأسى من النافذة وقلت : أحسنتم ، ورجعنا .

كان الصف الخامس فى حصة حساب ومراجعة ، وكانت السبورة مليئة بالأرقام ، لم ينتبه المدرس لوجودنا ، فسرنا فى طريقنا .

بمجرد أن فتحنا باب الصف السادس تنامى إلى سمعى « . . . وك يلعن أبوك وأمك » وفوجىء الشاب ذو الشعر المصفف بالكريم بوجودنا بينما تلون وجه أحد التلاميذ بلون البنجر الأحمر . قطعًا كان هو الذى تلقى هذا السباب ، وظهر أثره على وجهه ، كانوا فى حصة قراءة للغة الفارسية ، وإذ بالمدرس واضعاً يديه فى جيوبه وقد مد صدره إلى الأمام يفتح لسانه بالشكوى :

- سيدى المدير ، ما ينفعش معاهم الأدب من أصله . اقرأ إنت ... وشوف ازاى أنا بتابع سيادتك بكل اهتمام » .... وقطعت كلامه عند الميم الأولى وقلت :

- « اللى إنت بتقوله صح ، لكى سامحه علشان خاطرى المرة دى .... همه لازم يكونوا أولاد شطار . »

وخرجنا من الباب . بعد الصف السادس كانت هناك حجرة صغيرة طويلة متوسطة العرض ، لها نافذة إلى الجهة الجنوبية مثلها فى ذلك مثل باقى الحجرات ، ونافذة كبيرة إلى الجهة الشمالية ، حتمًا سوف تكون هذه حجرتى ، بها مكتب ودولاب أو مكتبة ، كلاهما خالٍ ، ليس فى الإمكان أفضل من هذا ، بعيدة عن الضوضاء ، مشمسة ، عندما تغلق بابها لايدخلها حتى صوت القرآن ، فما بالك بصوت الأطفال وضجيجهم فى فناء المدرسة ، كان المدرسين أيضًا إذا كان لديهم ما يعرضوه على فسوف تنهك قواهم بعد أن يصعدوا كل هذا الدرج ، أخذت قرارى بهذا ، ونزلنا بعد ذلك .

وسط فناء المدرسة كان يوجد حوض كبير للمياه ، ضحل ، كان هو المكان الوحيد فى المدرسة الذى تتوافر فيه شروط تناسب القصيرين من الأطفال . كان الطرف الآخر من الفناء مخصصاً لشبكة كرة الطائرة التى بدت ممزقة فى موضعين أو ثلاثة تم رتق فتقها بالسلك ، بينما يحيط بالفناء سور عالٍ يشبه تماماً سور الصين . سد مرتفع فى مواجهة أى هروب محتمل .

- ٣ -

غداة اليوم التالى ذهبتُ إلى المدرسة مـبكراً ، حيث كان التلاميذ يتوجهون فى صفوف إلى فـصولهم ، بينما وقف السكرتير فى الردهة والعصا فى يده ، واثنان فقط من المدرسين فى المكتب ، واتضح لى أن هذا دأبهم كل يوم . أرسلت السكرتيـر إلى فصل ثالث ، وتـوجهت بنفـسى لأتمشى أمام باب المدرسـة ، كـانت هناك حارتان إلى جـانب الضلعين الشمالى والشـرقى للمدرسة ، حارتان كيفـما اتفق ؛ تعبران الصحراء الخاليـة طويلتان فى استقامة ، لتصـلا فى النهاية إلى الشارع الرئيسـى المسفلت والذى كانت تمـر فيه سـيارة النقل العـام ، مزروع بالأشجار والمحـال التجارية والعمران ، واعتـقدت أن المدرسين سوف يروننى - من أى اتجـاه يأتون منه - واقفًـا إلى جانب المـدرسة . وأن الخجل سوف يـنتابهم طوال طريقهم إلىّ ، ولن يتأخـروا بعد ذلك . لكن أكان من اللائق أن أبدى هذا القدر من التشدد مع بداية عملى فى المدرسة ؟ . . . . وفـجأة ظهـر شبح فى نهاية الطريـق الجنوبى ؛ كان ذلك الشاب الذى يصفف شعره بالكريم . عرفـته من قده القصير وما يأتى به من حركات أثناء سيره من المحتم أنه رآنى لكنه ظل كما هو فى مشيته أبطأ من مدرس يحضر متـأخراً عن موعده أمام مدير مدرسته . بل حتى عندما اقترب أكثـر اتضح أنه كان يصفر بلحن من ألحان تلك الرقصـات الأوربية كان يرانى حتـمًا من على هذا البعـد . إلى درجة أننى حتى كنت أرى الهلب الكبير فوق رباطة عنقه ملتصقاً على صدره

لايتحـرك ، فكرت فى أنه « ليس لديه غيـر رباطة العنق هذه » ولكن الجبان كان يمشى فى بطء شديد . ولم يترك لى فرصة أصلاً لحثّه على الإسراع فـى مشيـته وهمـمت بأن أدخل من البـاب وأتركه ، وفـجأة أحسست أنه غيَّـر قليلا من مشيته وأسرع فيـها . أغلق أزرار سترته ، وتوجهت إلىّ أنظاره ، وبدا وكأنه أومأ برأسه قائلا « كويس ، حصل خير » . ويعلم الله ماذا كان سيحدث لو لم يفعل ذلك . فعلى الأقل كنت سوف أدخل إلى المدرسة وأغلق على باب مكتبـى وكأن شيئاً من هذا لم يحدث . عندما ألقى بالتحية ، بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً ، إلا أننى بسطت يدى فى اتجاه باب المدرسة ، وقلت :

- « اتفضل ياسيد .... اتفضل التلاميذ منتظرين » .

فى الحقيـقة مر الموقف بسلام . قطعًـا لم يكن يرانى . أو أنه كان غارقـاً فى التفكيـر .... فى ماذا ؟ لا أعلم . هـل فى الفتيـات اللاتى رآهن البارحـة فى درس الإنجليزية . أو ليس برجل تعـتوره أحـاسيس الرجال ؟ لابد أن لديه ما يشغله لديه آلامه ؛ يتجرع معها غصة قلبه ، فشاب مـثله يصفف شعره بالكريم ويربط على صـدره مثل هذا الهلب لايسـتطيع أن يظل وحـيداً ؟ ربما تأخّـر به الأتوبيس ربما كـان الطريق مغلقاً ؛ ربما أغلقوا الطريق ليأتى ذو رقبة غليظة من أقصى الدنيا لينال نصيبـه من مائدة على المرتضى هذه . وعلى أى حال فقد سامـحته فى سريرتى وقلت لنفسى « أحسنت أنك لم تسىء إليه فى القول » وفجأة ظهر على البـعد هيكل مدرس الصف الرابع ناشراً رايتـه ، وبمجرد أن

رآنى من بعيد ، أخـذ يجرى تقريباً ، أقـدامه طويلة ، تساعده حـتمًا على أن يجرى بسهولة ، لكن جسمه كان ثقيلاً ، ياله من عذاب كان يتحـمله فى ذلك ! ولم أتحمل أنا هذا المنظر . « مـا أسوأ مـا تفعله . بسم الله فى البداية ، ثم على الدنيـا السلام ! » ودخلت إلى المدرسة وجلست فى المكتب وأخذت أشغل نفـسى بشىء أفعله ، حيث وصل تتلاحق أنفـاسه ، وكان العرق يتـصبب من جبينه لدرجـة أخجلتنى . حتى تحيته لى كانت مبللة بالعرق . عندما رددت عليه التحية أردت أن أسأله « إذا لم أكن واقفاً هل كنت سـتجرى هكذا ؟ » لكنى رأيت أن هذا من السماجة ، وعـدلت عنه ، قلت : اجلس ، وأعطيته فى يده كوباً من المـاء ومع مناولتى له منحته ابتسامة فاترة ، ولمـا همّ ليذهب . قلت :

- كده أنت خسيت اثنين كيلو .

استدار ، ونظر إلىّ مبتسـماً ، ومضى لحال سبيله . كنت أريد أن أخرج من مكتـبى وأذهب إلى حجـرتى لأرى ما إذا كان الفـرّاش قد جهزها أم لا ؟ وإذا بالسكرتير يهبط الدرج مقرقعًا بأقدامه . ومنذ ذلك اليوم وأنا أميّز صـوت أقدامه ، كان يمشى واثقًا فى نفسـه راضيًا عنها ليـدهس الزمان والمكان وكـأن البلاطات كلهـا فرشت صـدورها على الأرض من أجل عيون أقدامه . وقبل أن يصل إلىّ قال :

- « شفـت حضرتك ! إزاى بـييجـوا المدرسة ، أخـينا الأولانى مفيش فى دماغه أى حاجة . أما الثانى ده .... ».

أردت أن أحكى له مهزلة التخسيس ، لكن رأيت أنها مزحة سخيفة ، فعدلت عن ذلك وسألته :

- « يعنى دلوقتى فيه فصلين فاضيين ؟ » .

- « نعم حضرتك ، الصف الثالث عنده ألعاب . وقلت يقعدوا ياخدوا إملا حضرتك ، وبرضه مدرس الحساب بتاع الصفين الخامس والسادس ما جاش حضرتك . » .

وسحب إحدى المناضد إلى جانب الحائط ، وصعد عليها ، ورفع صورة كبيرة لمقابر الهخامنشيين كانت معلقة على الحائط وقال :

- « بص حضرتك ... »

رأيت على ملاط الحائط شعار المنجل والمطرقة رسم فى عُجالة دون دقة بقلم رصاص أحمر رفيع السن . ودون أى سؤال منّى تابع حديثه :

- « ده حضرتك من آثار عهدهم ، فى أول السنة لى جيت هنا ... كان رئيسهم لسّه هنا حضرتك ، وكان كل همهم الحاجات دى .... يبيعوا جرايد ينشروا فكرهم ويرسموا المنجل والمطرقة حضرتك ، ولما أخدوا ريسهم أقول إيه علشان أشرح لك حالهم حضرتك .... اتلخبط حالهم حضرتك أولياء أمور العيال جم ميت مرة يشتكوا .. حضرتك .... وثلاث مرات ييجوا من عند الحكمدار العسكرى يسألوا عن بقيتهم فين ... »

وقفـز لينزل من فوق المنضــدة . اهتزت المقــابر بكل نقوشــها يميناً ويساراً مرتين أو ثلاثة واستقرت لتغطّى الشعار من جديد . قلت :

- « همه لسه موجودين ؟ »

- « أيوه حضـرتك ، بس بعد أيه ! واحــد منهم حضـرتك هوه اللى ماجاش لحد دلوقتى ، كل يوم نص ساعة ، ساعة إلا ربع يتأخر - حضرتك ، والثـانى مدرس سنة ثالثة ، ومهما تقـول لهـم .. مفيش فايدة حضرتك . » .

- « طب ليه ما مسحتهاش لغاية دلوقتى ؟ »

- كـويس ! بس الواحد يحكى لمين الـلى بيوجـعه فى قلبـه ؟ ياسيدى دول بييجوا ويقولوا للواحد فى وشه وهو وسط الناس : أنت جاسوس عميل ! أنا لغاية دلوقتى مكلم اللى لسه ماجاش ده مرتين فى الموضوع .. حضرتك . ومافيش فايدة ! »

بعد هذا أخذ يلقى أمــامى محاضرة يشرح لى فيـها كيف حوّلوا المدرسة إلى خراب وأفسدوها ، وكيف فقدت المدرسة ثقة الأهالى فى المنطقة ولم يعد فيها مجلس للآباء ، ولامساعدات للفقراء ، وكل يوم مشاكل وقلق من الحكمدار العسكرى ، وكيف جعلوا الأولاد يتمردون على كل شىء ، وما إلى ذلك .

بعد أن انـتهى من محــاضرته ، أخــرجت منديلى وأعطيــته له ، وذهب لينظف الشــعار ، وأوضحت له أننا هنا لن نكون مــنكر ونكير

لكى نحاسبهم وفهم من كلامى أننى بحكم سنّى لا أستطيع أن أفعل شيئًا ، وأن هناك من يدفع بسخاء لمثل هذه الأعمال ، كما أن لها رجال مدربون يعرفون عملهم جيداً وأن الموضوع لايحتاج إليه ، ومن الأفضل لنا أن نهتم بعملنا . بعد ذلك قمت لكى أذهب إلى حجرتى ، وعلى درج السلم أخذت أفكر ربما تغطى هذه الشعارات فى كل مكان من العالم بمثل هذه الصور . وعندما فتحتُ باب حجرتى كادت رائحة ترابها الرطب تزكم أنفى وكان مدرس آخر قد وصل ، فخرجتُ إلى الردهة وناديت السكرتير بصوتٍ عالٍ بحيث يسمعه كل من فى المدرسة ، وقلت له أن يضع بالقلم الأحمر ساعة تأخير لحضرة المحترم .

- ٤ -

في يومي الثالث توجّهتُ إلى المدرسة أيضاً منذ الصباح الباكر . ولم أكد ألـف من خلف سورها حـتى اصطدم وجهي بصـوت صراخ التلاميذ وبكائهم فأسرعـت الخطى ، وإذ بي أرى خمسة تلاميذ داخل الردهة يتلوون من الألم ، والسكرتير في يده عصا يقوم بضربهم على أيديهم على التـوالي ، في دفعـات منتظمة كل تلمـيذ منهم ضـربتين بالعصا على كفّيه ، ثم يعيد الكرّة من جديد ، وكانت طوابير الفصول تشاهد هذه المباراة . والأطفال يتوسلون ويبكون ، ورغم ذلك يبادرون بمد أيديهم فقد تعودوا على ذلك . اثنان منهم كانا قويا البنية يتظاهران بالبكاء والعـويل ، وكـان أحدهم على قـدرٍ من المهـارة بحيث كـان يسحب يده مـن تحت العصا كلمـا نزلت عليهـا ، لتنزل على لاشيء قلت : هذا من حسن حظه ، وحتمًا هو الذي جـعل السكرتير عصبياً إلى هذه الدرجة ، ولكن كـان بينهم تلميذ صـغير الحـجم إلى درجة ظننت معها أن العصـا ستأكل يده ، ولم يكن من الممكن التنشين على مثل هذه اليـد الصغيـرة . ومن المؤكد أن العصـا كانت تصطدم بطرف أصابعه ... آه أعرف كيف ستمزق جلده . أو أنها تصطدم بمعصمه ... حتى أوشكت أن أصـرخ أو أركل السكرتير برجلي ليطير إلى الناحـية الأخرى . كـان ظهره إليّ ، ولم يكـن قد رآني بعد . كـان كل شيء واضحًـا في عيون الأطـفال فعندمـا دخلت من باب المدرسة انتـشرت

الهمهمة بين الصفوف وأدركت معها بسرعة أنه من الصعب أن يعاقب السكرتير تلميذًا في وجود مدير المدرسة ، فما بالك إذا كان العقاب يدور أمام التلاميذ جميعاً . كظمت غيظى وأخذت أصعد الدرج فى هدوء . أحس السكرتير بوجودى فوقفت تحيَّتُه لى داخل حلقه ، فتدخلت فى الأمر ورجوته أن يسامحهم جميعاً هذه المرة من أجلى ، لم أكن على علم بما فعلوه بالضبط . هل حضروا متأخرين ؟ أم أنهم لم يحلقوا شعرهم ؟ أم أن السكرتير وجد وسخاً فى آذانهم ؟ أو أن ياقاتهم لم تكن نظيفة أو أنهم كانوا قد سرقوا أقلاماً من زملائهم ، أو مزقوا وسادات المقاعد فى أتوبيس خط الضواحى بالموسى ، أو عثروا على شىء فى الشارع أو الحارة ولم يسلّموه إلى السكرتير ؟ أو أى شىء آخر .

بعد ذلك قدم السكرتير أمامى تقريراً شفاهياً عما فعلوه ، كما حدثنى أيضًا عن أفعال سيئة أخرى يفعلونها فى العادة . لكن كف ذلك التلميذ صغير الحجم كانت صغيرة بدرجة كبيرة ، وكان وجهه يشبه وجه قطة إلى حد بعيد ، وكان يذرف الدمع إلى درجة لم يبق معها أمامى سوى أن أضرب هذا السكرتير وأحطّم عصاته على رأسه .

توجه الأطفال إلى صفوفهم وهم يتشاهقون بكاءً ، بعدها ضرب الجرس وتوجهت الصفوف إلى فصولها ووراءهم معلموهم الذين كانوا

قد حضـروا جميعًـا فى موعدهم . وذهبتُ إلى الحـجرة التى أُخليت وتنبهت إلى أن مجموعة من العصى قد سقطت من الدولاب ، نظرت إلى السكرتير الذى حضر إلى جـانبى لتوه ، وقلت : كان من الممكن بهذه الطريقة أن تشج رأس أحدهم ، إلا أنه اندفع فجأة قائلا :

- « إذا مـا وقفـتش قدامهم حـضرتك يوم واحد يركـبوك على طول . حضرتك ما تعرفش أد أيه بقوا عفاريت وزى البغال الهايجة . »

كان يكرر كـلمة حضـرتك وسيـادتك هذه مع كل جملة يقـولها . . . مثل أطفال المدراس . أحسست أننى إذا قلت كلمة واحدة أخرى بشأن هذا الموضوع من الممكن أن يقف فى وجهى ويعارضنى ، فغيّرت الموضوع وسألته عن أحوال والدته . انفرجت أسارير وجهه بالابتسامة ونادى الفراش ليحضر له مـاءً ، ولا أعلم لمـاذا تملكتنى رغبة الشيوخ فجأة وأخذت أمطره بوابل من النصح والتوجيه ، وعرفته أننى شخصيًا طوال سنوات دراسـتى فى المـكتب والمدرسـة الابتـدائيـة والاعـدادية والثانوية وكافـة الأماكن الدراسية الأخرى لم أتلق عقـابا سوى مرتين فقط ؛ مرة عـلّقونى على الفلكة أمام باقى الأطفال ، وكـانت جريمتى أننى صـعدت أعلى مـأذنة مسـجد « مُـعـير » التى كـانت تطل على مدرستنا وتكشـفها كلها ! وكانت المرة الثـانية وأنا فى الصف الخامس فى المدرسة الإعدادية ، حـيث عاقبنى مدير المدرسـة على سبيل الخطأ وضربنى مرتين بـالعصا ، وبعد أن اكتـشف خطأه ، أراد أن يعوّضنى

على ذلك فـأرسل إلىّ فى مكتبـه - ولمـا كنت من الأشـراف - أخذ يوجّه اعـتذاراته إلىّ وأهدانى كـتابا مـازلت أحتفظ به . وأتـذكر أننى ظللت أتحدث معه لمدة نصف ساعة ، حكمة الشيوخ ، أما هو فشاب يمكن تدجينه بسرعة .

بعد ذلك طلبت منه أن يقوم بتكسيـر كل العصى ، فكسّرها كلها بالفعل بعدها ذهبت أنا إلى حجرتى .

- ٥ -

مع أسبوعى الأول فى المدرسة بدأتُ بالفعل أقوم بأعمال جديدة فغداً سوف يأتى الشتاء ، والدفايات التسع الموجودة والتى توقد بالفحم ، وعملية إحضار الماء وتجهيزه أربع مرات يومياً ، وتنظيف الغرف والفصول وكنسها ، كل هذه الأعمال لايمكن أن يقوم بها فرّاش واحد . فطلبت من الإدارة التعليمية أن ترسل فراشًا آخر للمدرسة ، وكنا ننتظر وصوله كل يوم .

كنت لا أغادر المدرسة فى أوقات الظهيرة فى أيامى الأولى بالمدرسة ، كنت أمضى هذه الأوقات بقلب قلق ويد مرتعشة وبعد ثلاثة أيام أو أربعة وجدت فى نفسى الجرأة والشجاعة . كنت أحس أن المدرسة لن تصبح كما أريدها تماماً . ولم أكن أنا كذلك أيضًا - لافرق . كنت أعلم أيضًا أن أوقات الظهيرة غالباً ما كانت تشغلها حصص الألعاب وكان الصف الأول كذلك ، ولم يكن ينتابنى أى قلق أوخوف بشأن الأطفال الصغار الضعاف ، وشبكة كرة الطائرة داخل المدرسة ولاخطر فى ذلك . كما أن الصحراء المحيطة بالمدرسة لم تكن هناك سيارات تمر بها .

ورغم أنها كانت مليئة بالارتفاعات والانخفاضات ، وتملأها مياه المطر المتجمعة ، ولكن على أى حال فإن فناء المدرسة لاشىء أوسع منه .

كمـا كان المدرســون يتناوبون موضــوع الذهاب من المدرســة بعد الظهر حـيث يذهب فى كل مرة اثنان منهم ويبقى البـاقون فى أسلوب من التـضامن بشـكلٍ ما . لم يكن هنـاك أدنى خوف من أن يصـاب الأولاد بأى ضرر من برودة العلم والثقافة . وإذا حدث لاقدر الله أى شيء من هذا القبيل كنت سـوف أعرفه فى صبيحة اليـوم التالى عندما أكون فى المدرسة .

ذات يوم وصل إلى المدرسة أحد المفتشـين ، وقضينا نصف ساعة فى الترحيب به ، قدّمنا له الشاى وتبادلنا التحيات والاحترامات ووقّع فى دفـتر التـفـتيش « أن المدرســة رغم عـدم وجود الإمكانيـات تدار بأسلوب جيد للغـاية » . وقد عرفت منه أنه طبيب صـحة لم يستطع بعد أن يخفى لهجته الـقزوينية بين المصطلحات الأوربية لعلم الطب . كان من المقــرر أن يعاودنا مرة كل شهــر ليحمى عيـون الأطفال أولاد الناس لإزالة إفرازاتهـا ، ويرفع جفونهم بسرعـة عجيبـة لو حاول أن يفعلهـا معى لصممت أذنه بصـرخة منى . وكتب على ميـركروكروم وقطن طبى وشاش أيضًا لكى نحضرها من الإدارة التعليمية . لم تكن مثل هذه الأشـياء لدى الإدارة بالفـعل واضطررنا لأن نطلبهـا من أحد التلاميذ يعمل أبوه طبيًا فى الجيش ، وأحضرها هدية للمدرسة . كان الأطفال يصابون يوميًا على الأقل ثلاثة أو أربعة فى أيديهم وأرجلهم ؛ يأخـذون فى الجرى والركض فـيقـعون على الأرض ، يعـدون الدرج وينزلونه يقعون على الأرض،يلعبون مع بعضهم يقعون على الأرض ،

وكأنهم قد أكلوا ما يفقدهم توازنهم أو شربوا حتى الثمالة . وأكثر من هذا كله عندما يتعاركون كان العراك هو أبسط أشكال لعبهم فى أوقات الفسح ، فكنت ترى أو تسمع أن اثنين منهم قد هجما على بعضهما فى ركنٍ ما من الفناء بعدها يسقط أحدهما على الأرض لينتهى العراك ، وصياح السكرتير أو مرور أحد المدرسين لم يكن حتمًا لينهى هذا العراك . كنت أظن أن السبب فى كل هذا الوقوع على الأرض هو أن أغلبهم لايلبس فى قدميه حذاءً سليمًا ، والذين كانوا يلبسون منهم أحذية سليمة وجديدة كانوا من أولئك الأطفال المدللين الذين لايعرفون الجرى أو حتى المشى . يوميًا كانت الجروح تعرف طريقها إلى الأيدى والأقدام مرتين أو ثلاث ، أو حتى تصل إلى الوجه أو الرأس ، وأصبحت أرضية حجرة المكتب مليئة ببقع ثابتة من الميركروكروم الأحمر هنا وهناك . كانوا يحضرون بأنفسهم ليأخذوا العلاج الذى كان فى متناول أيديهم ليمسحوا على جروحهم وجلطاتهم ثم يذهبون ، كان من المعتاد أن تجد الكبير فيهم يساعد الصغيرَ فى هذه العملية ؛ وأحيانًا ما يقوم الفراش أو السكرتير بهذه العملية ، وأذكر أننى قمت مرة بنفسى بهذه العملية ، حيث ربطت جرحاً لنفس هذا الطفل ذى اليد الصغيرة جداً ذى الوجه الشبيه بالقطة حيث ضمّدت له جرحاً فى مفصل قدمه . ذات مرة أخرجت ملف الكهرباء والتليفون الخاص بالمدرسة من أرشيفها الحقير وقرأته ، اتضح لى أنه يمكن بقليل من السعى من جانبى أن تصل الكهرباء إلى المدرسة خلال سنتين أو ثلاث وكذلك التليفون ، راجعت إدارة المنشآت

التعليمـية مرتين ، وفتـحت الموضوع معهم من جـديد ، كما طرحت الموضـوع أكـثـر من مـرة أيضًـا عـلـى مـعـارفى فى إدارة الكهـرباء والتليفونات ، كانوا يظنون فى البداية أننـى أريد أن أنجز أعمالاً خاصة بى على حساب المدرسة ، واضطررت لأن أوضـح الأمـور . إلى هذا الحد كنت أقوم بأداء واجبى .

لم يكن بالمدرسة مصـدر للمياه ، لامياه صالحـة للشرب ولاحتى من المياه الجـارية ومع ذوبان الثلوج فى الربيع ، كان يتم تخـزين المياه فى خزّان تحت الحوض تعلوه مضـخة يقوم الأطفال بتشغـيلها بأنفسهم لملأ الحوض عن طريقها ، كان صوتها الشبيه بالنواح والعويل يملأ الجو مصحوبًا بضجيج الأطفال وصـياحهم وكان هذا فى حد ذاته نوعًا من اللعب بالنسـبة لهم ، حـيث كـانت السعـادة تغمـرهم وينتشـون مع الضوضـاء والضجيج . كـان الضجـيج والضوضاء صـورة أخرى من صور ألعـابهم المختلفة ، كـانوا يصيحـون ، يصرخون كان المضـمون الذى يحـتويه صـراخـهم يتراوح فـى الغالب بين السـبـاب والعتـاب والضحكـات والمجاملات . أمـا بالنسبـة لمياه الشـرب فقد كـان لدينا خزانان سعة كل منهما مائة لتر ، من الزنك الأبيض يشبهان تمامًا تلك الخزانات التى تقـوم عند الأضرحة أو فى الأسبلة على أربعـة قوائم ، كانا يقومـان عند طرف الفناء ، يتم ملؤهما مرتين كل يوم ؛ فبـمجرد أن يضرب جرس الفـسحة تجد هجومـاً من الأطفال على المـاء . ياله من عطش دائم كان بهم ! إنه يفوق مائة مرة ذلك العطش الذى لديهم

للعلم والثقـافة ، هذا المـاء كُنّا نحضره من نفس الحـديقة التى يغطى صف أشجار الصنوبر فيها وجه السماء ببقعة سوداء عالية . قطعًا كان الفرّاش هو الذى يقـوم بإحضاره . كـان ماءً نظيفًـا ، ويبدو هذا من ظاهر مجراه ، فـقد تحققت بنفسى منهـا . وكنت كلما تطلب الفراش لاتجده وتسرع زوجـته لتقول إنه ذهب ليـحضر المـاء . يسـتخدم فى ذلك دلواً كبيراً ورشاشة مليئة بالثقوب لايصل إلى المدرسة إلا وقد فقد نصف ما بهـا من ماء على الأرض ، وقد دفعت من جـيبى ذات مرة لكى يتم إصـلاح المضخـة والرشـاشة أيضًـا فلم يكن يصح أن نتـرك الأطفال عطاشًا أو أن نتحمل النواح الدائم للمضخة فى انتظار وصول المدد للمدرسة .

وذات يوم جاءنا مالك المدرسة . كان رجلاً وقوراً على درجة من كبر السن والـرزانة حتى أنه كان يتخـيّل أنه حضر إلى المدرسة لتـفقد المنزل الذى قام بتأجـيره للسكان ؛ فبمـجرد أن دخل من بوابة المدرسة علا صياحه ينادى للفراش ، وأخذ يكيل إليه السباب وللإدارة التعليمية كذلك ، لمـاذا هبب الأطفـال حائط المدرسة بالفحم ؟ وقد عـرفته من صراخه وقـذائفه . جلسنا لبعض الوقت للتعـارف والمجاملة ، وأخذنا نقلب خـزانة الأسـماء فـى ذاكرتينا بحـثاً عن أصدقـاء مشـتركين بينه وبينى . لم يكن هذا بالسـهل الهين فقد كـان عمره ضعف عـمرى ، ولكن وصلنا فى النهـاية إلى شىء نلوك ألسنتنا به عندها ارتاح كـلانا وعرفنا عما يجب أن يدور حديثنا ، بعـدها أخذ يسجل توصياته بشأن باب دورة المياه الذى أوشك أن يتآكل ، ومجرورها الذى امتلأ حتما ، وخزّان المياه الذى غـزته طبقة من الطحالب ، ومواسـير المياه التى ربما

تتجمد فى الشتاء وتنفجر ، والإدارة التعليمية التى بخسته حقه ، ،إنه إذا قام بمثل هذا العمل العظيم فى دولة أوربية لكانوا قد نصبوه على الفور عضواً فى هيئة أكاديمية . . . . وما إلى ذلك من ادعاءات وأباطيل .

قدمنا له الشاى ، وتعرف على المدرسين ، وأخذ يمنحنى وعوداً حتى ذهب ، كان كهلاً ، رجلاً مسناً بحق ، يتجسّد فيه ماضى الذكريات ، وخزانة لحكايات وأحداث ووقائع لا معنى لها ، نموذجاً لوقار لايضفيه على الإنسان إلا مرور العمر . جلس ساعة ونصف تماماً . كان يداوم على هذا البرنامج مرة كل شهر . وكان علىّ أن أتحمله .

أما المدرسون . فكان كل منهم معه إشعار بأنه يقوم بتدريس ٢٤ ساعة أسبوعياً ، ولكن نصاب كل منهم فى الجدول لم يكن ليصل لأكثر من عشرين ساعة ، قبل أن أحضر أنا للعمل بالمدرسة كان السكرتير هو الذى يدبّر هذا الأمر بنفسه ، وشيئًا فشيئًا تنامى المعروف بيننا فقررنا أن نطلب مدرسًا آخر من الإدارة التعليمية ليصبح نصاب كل منهم بذلك ١٨ ساعة شريطة ألا تتعطل المدرسة أبداً فى فترات بعد الظهر . حتى ذلك الذى كان يدرس بالجامعة ، كان يستطيع أن يواصل تعليمه مع ١٨ ساعة فى جدوله أسبوعياً ، وكان أصعب ما فى هذا الموضوع (هو أن يقوم العمدة بتنفيذه مع كاتبه) وقمت أنا بطلب مدرس آخر من الإدارة التعليمية .

- ٦ -

مع نهاية الأسبوع الثانى وصل الفرّاش الجديد . كان يبلغ من العمر خمسين عاماً ، نحيلا يتسم بالذكاء والمهارة والحنكة ، يلبس طاقية شتوية ويرتدى رداء أزرق اللون - من القماش الذى يرتديه جنود الحراسة - يدير فى يديه مسبحة ، كان على خبرة ما بأى عمل .

تناوب إحضار ماء الشرب مع الفرّاش القديم . كل واحد منهما يوم . وأصبحت المدرسة نضرة ، نظيفة وأخذ وجهها رونقه وبهاه . أرضية الردهات كان يتم غسلها باستمرار . كما قمنا أيضًا بتركيب الدفايات ، بالإضافة إلى الدفايات القديمة التى توقد بالحطب . وقد دفعنا فى تركيبها ثلاثين تومانا أخذها السكرتير من الإدارة التعليمية . وقد وقعت منذ أسبوع خمس استمارات لتحصيلها . كان من الممكن لهذين الشخصين بسهولة أن يكفيانا أمر هذه الدفايات ، لكن الفراش الجديد كان تفكيره كله حسابات حتى أننى سمعت أنه قال : « بس إزاى هنوفر الفلوس اللى عايزاها » بعدها أصدر السكرتير أوامره بإحضار عامل آخر للمدرسة أخذ يلف ويدور فى المدرسة طوال يومين كاملين ، كان كأنه بابانويل فى ليلة عيد الميلاد فقبل أن يدهن الدفايات بورنيش التلميع ، كان يدهن به نفسه ، رأسه ووجهه ، وأصبح وكأنه عفريت متجسد بين الأطفال ، وربما أدى هذا إلى أن يسقط عنهم خوفهم . تم تغيير وتبديل حوامل الدفايات وتغطية جدارها الداخلى

بالطين والقرميد ، وتم تركيبها مرة أخرى ، بعدها أصبح علينا أن نسعى وراء الحصول على الفحم والحطب ، ولمدة أربعة أيام متوالية كنا نرسل الفراش القديم عند الظهر إلى الإدارة التعليمية وننتظره أن يعود بالفحم .

لم يكن قد مضى أسبوع واحد على وصول الفراش الجديد حتى علا صوت المدرسين . فلم يكن يلقى بالتحية على أيٍ منهم ، ولا يرضى بأن يذهب لإحضار طلباتهم الصغيرة . لم يكن يدع لأى منهم ثغرة ينفذ منها إليه. كان يحضر مثل الجميع فى الثامنة صباحاً بالضبط،ورغم أميته كان يبادر بالتوقيع فى دفتر الحضور والانصراف ، حيث يرسم أمام اسمه خطًا متداخلاً معوجًا يفهم منه بالتنجيم والتخمين أنه « حسين » . عندما كان يدق جرس الظهيرة كان يسارع بالذهاب مثل الجميع ، وكذلك فى أوقات العصر . صحيح أنه كان دائماً ما يلقى علىّ بالتحية ، أما المدرسون فلابد أن كل واحد منهم كان يرى فى نفسه شخصًا ذا أفضلية وحيثية وعلم وكيان ، وعلى أى حال لم يكن الأمر كله يستدعى أن يتوقعوا من فراش فى المدرسة أن يبادرهم بالتحية ، لكن سواء كان الأمر هكذا أم لم يكن فقد كان يعتبر نفسه على قدم المساواة مع الجميع ؛ كان لديه إصرار عجيب على التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف ! وأسوأ من هذا كله كان كلما دخل على المدرسين أو مر عليهم يلتزمون الصمت ، هذا على الرغم من أننى منذ اليوم الأول لوصولى إلى المدرسة شاركتهم فى الإنفاق من

مالى الخاص ، وتركتهم أحـراراً فى أن يغلقوا عليهم باب مكتبهم فى أوقات الراحة ليتحدثوا فيما يشاءون ويفعلوا ما يريدون . أما هو فكان فى أوقات الراحة بـين الحصص وفى الفسحة يحـضر مع المدرسين فى مكتبهم ليصب لهم الشاى ويناولهم المـاء للشرب ، ثم يقف فى ركن معيّن من حجرة مكتبهم . وكان هذا يضايقهم فلم يكن فى استطاعتهم مع وجوده أن ينفثوا عن مصاعب التدريس ومشاكله ويظلوا طوال فترة راحتهم على هذا الحـال دون أن تواتيهم الجرأة على أن يقولوا له شـيئًا أو يلفتوا انتباهه إلى شيء ، كان سليط اللسان ، لايحسب حساباً لأى منهم ، ومـرة أو مرتين أرسلوه يبحث عـن شيء نادر ليتخلـصوا منه لكنه كان من المهارة بحـيث ينجز ما أمروه به على الفـور ويعود إليهم من جديد حتى أصبح شوكة كـبيرة فى حلقومهم ، وصل هذا الوضع إلى درجة أن ضـحكات المدرسين العالية لم تعـد تخرج من وراء باب مكتبهم أثناء أوقات الفسح . ولابد أن عواصف كانت هناك خلف هذا الباب ، عشر سنين من الخـبرة لابد أنها علمتنى على الأقل أنه إذا لم يستطع المدرسون أن يضحكوا خلال الوقت القصـير فى الفسحة فإنهم سوف يقومون بضرب ومعاقبة التلاميذ فى الفصل وإذا لم يتخصلوا من متاعب أثقال العلم وينفضونهـا عن أجسامهم ورؤوسهم بتبادل النكات والطرف فسوف يغالبـهم النعاس فى الفصل . لذلك كله كان لابد من تدخلى ، وذات يوم استدعيت الفراش الجـديد ، فى البداية سألته عن حـاله وأحواله وعن سنين خـبـرته ، وعدد الأطفـال لديه ، وإلى كم وصل راتبه . . ،حتى فهمت الموضوع واسـتطعت أن أفسر موقفه . . .

فقد كان يحصل على راتب شهرى يزيد بقليل عن ثلثمائة تومانا ، وهذا طبيعى بالنسبة لرجل له أقدميته التى وصلت إلى ٢٥ سنة من الخدمة ولم يكن راتبه الذى يبلغ ثلثمائة تومانا يعد شيئًا إلى جانب هذه السنين ولكن فى مدرسة يحصل أقدم مدرسيها على راتب شهرى ١٩٢ تومانا ! من هنا فسدت الأمور وانقلب الحال . كان من الواضح أن المدرسين معهم الحق فى أن يعتبروه غريباً . فهو لم يحصل على دبلوم ، ولاحتى على أى شهادة ، ومهما يكن فهو ليس أكثر من فرّاش !! إلا أنه كان عنيداً وكان له الحق فى ذلك . حاولت أن أفهمه بالتلميح والإشارة فى البداية ثم صراحة أنه إذا كان المدرس والمعلم لايأخذ أجره الذى يستحقه فى الدنيا لكنه يختلف عنه ، وأنه رجل متدين مدرك للأمور ولابد أنه سمع شيئا عن « من علمنى حرفاً صرت .... » وأخذت أحدثه بهذا الكلام ، حتى قطع كلامى فجأة وقال : -

- « ياسيدى ... حضرتك بتقول إيه ! حضرتك ماتعرفش الشغل ده وما تعرفهمش همه أصلا . النهارده عايزينى أنا أشترى لهم سجاير ، بكره يبعتونى أشتريلهم خمرة ... أنا عارفهم كويس . حضرتك لسه جاى لنا اليومين دول ، أما أنا فبقى لى عمر بحاله مع الكتاكيت المزغبة دول . »

حقاً ما قاله . فقد أحصى أسنانى بالفعل قبل الجميع ، وفهم وضعى جيداً فى هذه المدرسة . لكنى كنت أخشى أن يذهب لأبعد من

هذا ، كنت أريد أن أقصّر الأمر معه ولكن كونى مدير مدرسة يقف ساكتًا أمام فراش وقح جرىء إلى هذه الدرجة ! . . . حتى أنقذنى من هذا الموقف هدير الشاحنة التى وصلت تحمل الفحم ، وعندما توقفت عن السير وخبا صوتها قلت :

- « إيه الكلام الفارغ ده ، إزاى مدرس محترم يصرف فلوسه فى الخمرة ؟ روح دلوقتى أهم بعتوا الفحم . . . »

وعندما همّ بالخروج . . . . أردفت قائلاً :

- « فى الأيام اللى جاية لما يحتاجولك ، ويطلبوا منك فلوس سلف هتبقوا صحاب وتحبوا بعض . »

وخرجت إلى الردهة . كان باب المدرسة الحديدى الكبير قد فُتح ، ودخلت الشاحنة إلى المدرسة ، وأخذوا يفرغون حمولتها أمام المخزن فى نهاية الفناء ، قام السائق بتسليم ورقة للسكرتير فى يده ، ألقى نظرة عليها ثم أشار إلى حيث كنت واقفًا فى الردهة ، وأرسله بها إلى فوق . وضع السائق الورقة فى يدى مع التحية ، كانت إيصالا باستلام الفحم كان الإيصال الرسمى للإدارة التعليمية فى ثلاث نسخ ، أصل وصورتين وفوقها ورقة مطبوعة من ميزان « بسكول » تفيد أن الشاحنة يبلغ وزنها مع حمولتها ١٢ طنا ، لكن الإيصالات الرسمية للإدارة التعليمية لم يكتب بها شىء ، كما أن مكان كمية الفحم المسلمة إلى المدرسة بها كان خالياً .

كان خاليــاً فى النسخ الثلاث . كان واضحــاً أن المستلم هو الذى يجب أن يملأها . وهذا ما فعلته . أخذتُ الأوراق فى الحجرة وكتبتُ الرقم وسجّلتــه بقلمى على كل نسخة من الورقات الـثلاث ، ووقعت عليها وسلّمتها لـلسائق فى يده ، فأخذها وذهب وقلت للسكرتير من فوق :

- « إذا كان لازم تتختم ، اختمها أنت ياسيدى . »

وذهبت إلى عــملى وأخذت أفكــر بشأن الفــراش الجديد وذكــائه الحاد ، وتمرّسه فى عمله ومهارته وخبرته ؛ « وإلى مدى كانت ستكون الأمور علــى ما يرام إذا كان لاثنين فــقط من هؤلاء المدرسين مــا لهذا الفراش من خبرة وتجربة ، وإذا كنا جميــعًا لنا ماله من خبرة فى عملنا هذا لكان هؤلاء الأطفال قــد أصبحــوا فلاسفة فى ظرف عــام واحد » حتى فُتح الباب ودخل منه السكرتير . وكانت إيصالات الفحم فى يده وقال :

- « يمكن تكون حــضرتك ما فــهمتش ! وبالأخــص إنهم سابوا المكان فاضى حضرتك . . . . . »

لم أفــهم بالفعل . إذا كنت قــد فهــمت لمــا اختلــف الأمر عــما حدث أيضًا . على أى حال فقد خــرجت من حالة الغباء هذه - فجأة - وقلت فى حدة : « خير ؟ » .

- « مفيش حاجة حضرتك . . . هو ده المعتاد معاهم سيادتك . . إذا ما تفاهمناش معاهم يعطلوا لنا شغلنا حضرتك . »

،خرجت عن هدوئى ، إذ كيف يشركنى فى الصفقة بهذه الصراحة وأنا مدير المدرسة . وصحت قائلاً :

- « عجيبة ! بقى أنت دلوقتى اللى بتوريلى شغلى وتعرفهولى ؟ يخرب بيت المدرسة على مديرها حتى لوكنت أنا ! غور ، حط الورقة فى ايديهم ويغوروا فى ستين داهية . . . يحرق أبوهم . . . »

كان صوتى قد علا مرتفعًا بهذه الكلمات لدرجة لم يبق فى المدرسة شخص واحد منهم . كنت مديراً مستقيمًا ألتزم الأدب وألتمس العذر للجميع وأذهب لأوصل كل بقال أو سقّى حتى عتبة الباب لأنى كنت أعلم أن أولياء الأمور فى حاجة لتعلم مثل هذه الآداب أكثر من أطفالهم - والآن يريد سكرتير المدرسة أن يعلمنى كيف أوقع على وصل استلام ١٨ طن فحم بدلاً من ٩ طن فحم استلمتها بالفعل ، وبعدها يتم إعفائى مع الإدارة التعليمية . هاها ! . . .

لم أستطع أن أفعل شيئًا حتى الظهر سوى أننى كتبت نص استقالتى عدة مرات وفى كل مرة أمزقها . . . هكذا يرسمون الخطوة الأولى أمام قدم الإنسان .

- ٧ -

بمجرد أن بدأ هطول الأمطار أصدرتُ أوامرى بأن يبدأ إشعال الدفايات من السابعة صباحًا . وطبقًا للقواعد المعمول بها فقد كان يجب علينا أن نبدأ فى إشعالها بداية من الثامنة صباحا كل يوم على أن يبدأ ذلك بعد بداية شهر ديسمبر بخمسة أيام . وقد بدأنا فى إشعالها بالفعل مبكراً عن هذا الموعد بعشرة أيام . كنا نأخذ الفحم والحطب أياً كان ويتم رصها فى الدفايات عصر اليوم السابق . أوراق واجبات التلاميذ المنتهية وكانت كثيرة ، كان يلزمها فقط عود ثقاب . . . كان التلاميذ يحضرون مبكراً كل يوم ، حتى فى الأيام الممطرة . وكأن ذويهم يطردونهم من البيوت مع أول شعاع للشمس ، أولم يتناولوا غداءهم ظهراً . لا أعلم ماذا كان فى المدرسة حتى ينجذب إليها الأطفال بكل هذا الشوق والرغبة . حتماً كان شيئًا آخر غير التعليم والثقافة . وبالتأكيد لم يكن من أجل عيون المدرسين ودروسهم والسكرتير والمدير والرد الإجبارى على تحيتهم . حاولت كثيراً أن أحضر إلى المدرسة يوماً قبل مجىء التلاميذ لكن لم يحدث لى مرة أن استنشقت عبير المدرسة خالياً من أنفاس التلاميذ الملوثة بالعلم . أحياناً كان عملى يمتد فى أوقات الظهيرة ، أمشى بعد الظهر بساعة كاملة والمدرسة لاتزال مزدحمة وكأنه موعد ضرب الجرس ، كانوا يحضرون مبكرين دائماً . وبمجرد أن يصلوا إلى المدرسة يتجمّعون حول الدفايات ، ويأخذون فى

تجفيف أحذيتهم . كان بعضهم يبقى فى فترة الغداء فى المدرسة لايغادرها وسرعـان ما أدركت أن البقاء فى المدرسـة خلال أوقات الظهيـرة أمراً يتعلق بمسألة الأحذية ، فمن كـان منه يلبس حذاءً فى قدمه لايبقى فى المدرسة ، وهذه القـاعدة كـانت تنطبق أيضاً على المدرسين فـهى توفر على الأقل ما يحتاجه تلمـيع الأحذية من مال . فالمطر فى هذه المنطقة تحت السفح الجـبلى لم يكن يستمـر ساعة أو ساعـتين فقط ، والطرق والمدقات التـى كانت تصل إلى المدرسة مـن الشارع الرئيسى المسفلت كانت كلها مدقات ترابية ، وكان سير الأطـفال فيها ومجيئهم وذهابهم عليها يجعلها كأنها قطعة من طريق يسير إلى جانب نهر يملأها الغرين والطين دائمًا والمـاء أحياناً وتكثربها المستنقعات . أما فناء المدرسة فكان أسوأ من ذلك يتوقف الجرى واللعب لتصبح المدرسة خواءً صامتًا . لا أحد يقـدم على فعـل مخالف . هنـا أيضًا كان الأمـر يتعلق بمـسألة الأحذية . قبل هذا كنت قد قرأت هلاوس كثيرة حول مقومات عملية التربية والتـعليم . بالمدرس أو بممحاة السبورة أو بدورة ميـاه نظيفة أو بآلاف الأشياء الأخرى . . . أمـاهنا فمقومات التعليم تتـركز كلها فى صورة بسيطة جـدًا وبدائية ، فهى ترتبط هنا بالحذاء . فـالحذاء يصبح ثقيلاً فى المـاء وإذا أسرعت فى السـير سوف يلتصق بالطين وينزع من قدمك . فـضلاً عن الأيدى الحـمراء كـالبنجر والملابس البـتلة - عند وصولهم إلى المدرسـة - كنت ترى عيون أغلبهم حـمراء اللون . كان من الواضح أنهم أدوا فـاصلاً من البكاء فى هذا الصـباح البـاكر وأن

بيوتهم كان بها صراخ وزعيق وعراك . وأن آباءهم فى الغالب فلاحون ومزارعون وجميعهم حتماً ولأدون أصحاب عيال . وليس هناك مجال للحديث عن الرحمة والإنسانية . أوشكت المدرسة أن تصبح سريراً . وأصبح عدد الغائبين كل صباح عشرة أمثال الأيام السابقة ولم يكن أى مدرس يستطيع أن يبدأ فى التدريس مع الحصة الأولى ، فالأيدى المتفخة المتجمدة لاتعمل . وكذلك السكرتير أيضًا بعد أن قام بتكسير كل العصى . حتى مدرسنا فى الصف الأول كان يعلم أيضًا أن التعليم والمعلومات فى مدارسنا تعتمد بشكل أساسى وبحت على التمارين . تمارين وواجبات . عشر مرات عشرون مرة . واليد المتجمدة لاتستطيع أن تعمل بالفأس والمعول فهى تصبح لزجة جداً أيضًا وتهرب من اليد التى تمسكها . قررنا أن نتدبر هذا الأمر .

كان الفرّاش الجديد هو الذى يصل قبلنا جميعًا . ذات يوم كان لدينا فى حجرة المكتب شبه مجلس وحتماً كان موجوداً معنا . فقد فرض نفسه تدريجيًا . كان يستغل خجل المدرسين وصغر سنهم ويمارس ضغوطه عليهم . قال إنه على استعداد لأن يستحث أحد الأغنياء المجاورين للمدرسة على أن يرسل إلينا رمل لنفرشه فى الأرض شريطة أن نذهب نحن أيضًا لنطلب من المجلس المحلى أحذية وملابس للأطفال . انتفض مدرس الصف الثالث من مكانه كمن لدغه عقرب وقال : -

- « أيه أمور الشحاتة دى ، ده مش من شئون المدرسة والتهويب ناحية المجالس اللى زى دى يجيب وجع الدماغ » .

وأخذ يتحدث بمثل هذا الكلام ، وحتماً كان سيواصل حديثه إذا كان المجلس على استعداد لأن يسمعه لكى يقرأ علينا أشياء يحفظها أيضًا عن تراجع الثورة وتقاعسها ، لكن المجلس لم يكن مستعد لذلك ، مع هذا الوضع لم تكن هناك حاجة لتدخلّى ، وقبلنا اقتراح الفراش الجديد . أما أنا وكذلك أى مدرس من المدرسين لم نكن حتى ذلك الوقت قد سمعنا أى ذكر للمجلس المحلّى . وتقرر أن يقوم هو بمتابعة هذا الموضوع ويعرف المكان الذى سيجتمعون فيه الأسبوع القادم بل وحتى يطلب أن يوجهوا إلينا ما يشبه الدعوة .

بعدها بيومين وصل إلى المدرسة ثلاث شاحنات محمّلة بالرمل . أفرغنا اثنتين منها داخل فناء المدرسة والثالثة أمام باب المدرسة من الخارج ، وقام الأطفال بفرشه بأنفسهم ، بأقدامهم وبالمعاول وألواح الخشب وبأى شىء تصل أيديهم إليه . كان والد أحد التلاميذ هو الذى أرسلها . واضطررنا لأن نهتف باسمه تحية له أمام فصله . عصر نفس اليوم حضر إلى المدرسة والد هذا التلميذ بنفسه ووجّه الدعوة لنا لنتعرف على أعضاء المجلس المحلى فى يوم كذا . . . . الساعة كذا . . . بالمكان الفلانى .

كان علىّ أن أذهب أنا والسكرتير . وصحبنا معنا مدرس الصف الرابع على الرغم من خشيتى أن يظنوه هو المدير . لكنه كان تكملة للعدد ، يتحدث بحساب ، يعتبر فخر المدرسين .

كان المنزل الذى اختير لاجتماع المجلس المحلى فى تلك الليلة يشبه المدرسة تماماً فى كونه بعيداً منعزلا فى منطقة خالية ، تنهض حوائطه الأربعة مستقيمة فى قلب الصحراء . عند وصولنا كانت الشمس قد مالت إلى الغروب وعندما دخلنا من باب حديدى كبير وجدنا أنفسنا فى حديقة مليئة بالأشجار ، وأشجار أكلها الخريف ، وممرات مفروشة بالحصى والرمل يتوسطها بناية المنزل على طراز بسقف جمالونى . خدم عديدون عندما دخلنا من الباب تركنا فى أيديهم قبّعاتنا وأردية المطر . وأحاطت بنا سلالم كثيرة وتماثيل جصية مكللة بالغار ، وثريات المصابيح فوق رؤوسنا ، وتحت أقدامنا يسرى صوت مولد الكهرباء مكتوماً ، وكذلك فى الحوائط . حتما كانت هذه الكهرباء من مولد خاص ، وسجاجيد ومشايات نلوثها بالتعليم ونمشى عليها ، كانت كأنها وضعت فوق بعضها فى ثلاث طبقات فإذا ما اتسخت الأولى ترفع لتظهر الثانية ، عندما وصلنا إلى الطابق الثانى وجدنا باب الصالون فدخلنا كان به حاج يصلى بقفطان أبيض وجبّة مفتوحة . ولما رفع من السجود رأينا له لحية بقدر قبضة . ونهض صاحب المنزل ليرحب بنا فى لهجة يزدية غليظة . فقدمت له رفيقى ، ولابد أنه فهم بعدها من المدير . كانت المصابيح تتغامز ببريقها مع بعضها البعض لتخفف عنا نحن القادمين من المدرسة وطأة كل هذا المتاع والأثاث . وصل الشاى ؛ خفيف جداً فى أكواب تحملها مماسك فضية مطعمة بالمينا لم أستطع أن أشرب نصفه . أشعلت سيجارتى وأخذت أتحدث مع صاحب البيت عن سجاجيده . كان تاجر سجاد .فالسجادة كلما

داستها الأقـدام ودهستها تكون أهلاً للتصدير ، وتحـول الحديث رغمًا عنا إلى سوق التصدير حيث كان الحاج قد انتهى من صلاته . فنهض ثم رفع قـفطانه أمامنا وهيّـأ حاله وأحـواله للجلوس و« مسـاكم الله بالخير »وما إلى ذلك من تحيات وسلامات. وأخذ مدرس الصف الرابع يجاذبه أطراف الحديث شيئًا فشيئًا حتى اختلطا معاً فى حديث شيّق . بينما كان السكرتير فى حالة تشبه تلك الحالات التى تنتاب الأطفال فى مجالس الكبار عندما يغالبهم النعاس لايريدون أن يضعوا أيديهم تحت رؤوسـهم . وبدأ أعضـاء المجلس جلسـتهم ، كـان من الممكن إدراك درجـة ومكانة كل منهم ومنصـبه بناء على مـا يلقـاه من احتـرام من الآخـرين . كـان ذلك الحـاج أمـينًا للصندوق . أمـا شـخص رئيس المجلس فإننى كنت أقـرأ اسمه فى عناوين الـصحف لا أعلم كم سنة مرت على ذلك ، حيث كان ينتظر أن يعين فى الوزارة ولابد أنه يثلج قلبه الآن بموافقات أعضاء المجلس على ما يقوله وأن يسمع منهم دائما عبارة « نعم سـيدى » كما يسعده أيضًـا أن يبت فى أمور المياه والزبالة والكهربـاء فى الحى ، وحتّمـا يطير فـرحًا الآن بوجود القـائمين على المدرسـة فى الحى فى حضـرته . أخذت أفكر فى أنه من الأفـضل لو اقتنع جـميع الوزراء بأن يفتحـوا ديوان وزاراتهم على نواصى الحارات والأزقة . وصل عدد الجميع كبيراً وصغـيراً طويلاً وقصيراً إلى خمسة عشر شخصًا . وقفنا جميًعا منتصبين لافتتاح الجلسة ثم جلسنا ، كنت أنا والسكرتير تماماً مثل طفلين جلسا فى استكانة وهدوء ، بينما جلس مدرس الصف الرابع وسطنا مثل الخـولى تماماً ، وجلس كل عضو من

أعضـاء المجلس مـتكئًا على ثروته ومـاله ومنزله الصيـفى . يتـحدث غالبيتهم بلهجة محليـة ، ويأتى بتصرفات وحركات خرقاء ، حتى أن الواحد منهم لم يكن يعرف كيف يتحكم فى يديه وقدميه ، وإذا تحدث علا صوته . يتحركون بهمجية ويختلسون النظرات إلينا . وكأن وزارة الدواب قد بعثت بثلاثة حيوانات جدد إلى حديقة الحيوان فى حيهم . كان أحدهم وهو الأكثر شباباً فيهم ويلبس نظارة طبية على عينيه يشبه قرد حاول أن يقلد الآدميين فقام بلبس مثل هذه النظارة .

بدأت الجلسـة أعمالهـا الرسمـية وقام صـاحب المنزل بتقـديمنا لهم . وبدأت الجلسة ، الموافـقة على وقائع الجلسـة السابقة ، تدوين أسـماء المتـغيـبين صورة طبق الأصل لمجلس النواب ، وقـد أخذوا الموضـوع بجـدية لدرجة كنت أنسى مـعـها أحـياناً أين أنا ، قـبل أى شىء دار الحديث والحوار حول السرقة التى تعرض لها ليلة أول أمس منزل فلان الذى تغيّـب عن الجلسة لهذا السـبب ، وأنهم مضطرون لأن يـطالبوا بإنشاء نقطة شرطة أو يطالبوا على الأقل بدورية ليلية من عدة جنود ، بعدها حول مياه الآبار التى نضـبت ، وعن محطة توليد الكهرباء التى كان مقرراً إنشاؤها بالجهود الذاتية ، والبـئر العميقة التى يريد صاحب المنزل أن يحفرها . بعدها انتقل الحوار إلى قضية فلان الذى قام بتأجير منزله لشـخص أمـيريكى والإيجـار الذى سـيصله مـع توصيل الميـاه والكهرباء والتليفون وهو مرتاح فى سريره دون أدنى تعب أو مجهود ، وسرت موجه من الحسد بين الحاضرين ومعها استغفار الحاج و . . . .

استمر النقاش على هذا النحو ساعة كاملة،حيث ناقشوا مهام الأمور ، وترك الحاج مسبحته من يده ، أما هذا الذى وضع نظارة على عينيه فقد عاد مرة أخرى إلى حركات الآدميين ، أما أنا ومدرس الصف الرابع فقد أشعل كل منا سيجارته وكأننا نريد أن نعلن عن وجودنا أيضاً . وعندما جاء خادمهم ليجمع الأكواب كتبت شيئاً على ورقة علبة السجائر وأرسلتها لصاحب المنزل الذى تذكر وجودنا فجأة فاستسمحهم قائلا :

- « إخوانا الأساتذه عندهم طلبات ، فأحسن إن إحنا نأجل أمورنا ومشاكلنا لبعدين . . . »

وكأنه أراد أن يفهمهم أنه لايجب أن يتحدثوا فى كل شىء فى وجودنا . فسمحوا بذلك. بدأ مدرس الصف الرابع فى الحديث قائلا :

- « أيوه . . . . إحنا جينا تلبية لرغبة حضراتكم - وأيًا كان الموضوع فإحنا دلوقتى فى ضيافتكم . وتصدقوا حضراتكم إنه شىء ما يسرش أبداً إن أبناء حضراتكو يكون معاهم فى المدرسة تلاميذ ما عندهمش أحذية ولاطواقى ، ولأننا على علم بحب حضراتكم لأعمال البر والخير ، . .والشكر على شاحنات الرمل والزلط . . وكل شىء . . ».

تماماً مثل أى مدير عام يعلم لماذا أحضرناه معنا ، بعدها خرج السكرتير هو الآخر عن صمته وقال تلك الأشياء التى كان قد حفظها من قبل . . . وأخذ يدعو لهم ويطلب منهم الدعاء . . . وأفسد الأمر

إلى درجـة أنه بقى فقط « أمن يـجيب . . . . » عليـه ، وأوشكوا أن يلغوا أنفسهم ويضعوا أيديهم مرغمين فى جيوبهم ، حيث نهضتُ من مكانى ، وصحت فى السكرتير معنفاً أياه أن يترك أمور التسول هذه ، وأخبـرتهم أن الحديث ليس عن طلبات وأمـور استجـداء لكن المدرسة تقع فى مكان معزول وبعيد والإدارة التعليـمية لها ما يشغلها ، ودورة الميـاه ليس لهـا باب أوسـقف ومـا إلـى ذلك من باطل القـول . . . وحمدت الله أننى لم أتعصّب حتى أنقذنى ذلك الذى يضع نظارة على عينيـه ، فعندما كنت أوشك أن أتعصب كنت أنظر إليـه . تحدّثت أنا الآخر ربع ساعة كاملة وتقرر أن يحضر إلى المدرسة عصر اليوم التالى خمسة أفراد منهم ليبحثوا الأمر على الطبيعة ، وإذا كنا فى حاجة إلى شىء يخـرج عـن نطاق مـقـدرة الإدارة التعليمـية فسـوف يحيطون علماً به . ووجّهنا لهم شكرنا وأعربنا عن سعادتنا وخرجنا .

فى ظلمـة الصحراء اصطفت سـبع عربات وراء بعـضهـا البعض خلف سور المنزل ، حـيث تجمع سـائقوها فى إحـداها ، وأخذوا فى فضح أسرار حريم قصور مخدوميـهم لبعضهم البعض ، أما نحن فقد سـرنا على أقدمـنا حتى الطريـق الرئيسى الذى يمـر فيـه الأتوبيس ، أعطيت مدرس الـصف الرابع سيجـارة أخرى حتى أبـحث على ضوء الكبريت عن شىء فى وجهه . لكن شيئاً لم يكن هناك . لم يكن فى وجهـه ذلك الذى كنت أبحث عنه ؛ ففى تلك الجلسة لم يكن وجـهه قد فقد سـمات المعلم فقط بل أنهم قد سلبوه كل ما كـان يتميز به من

هيبة المدير العام لم يبق شيء منه على الإطلاق . هل هذا يعنى أننى كانت لى نفس حالته ؟ بل نفس فقدانه لحالته ؟ ونفس الوجه الممتلئ بالفراغ ؟ . . . .

- « نعم . إذن لماذا ذهبت أصلاً ؟ وإذا كان أولاد الحمير دول من غير جزم ولاطواقى ؟ وأنا مالى أنا ؟ هل أنا الغلطان فى أنهم مش لابسين جزم ولا طواقى؟ مالى أنا وأمور الشحاتة دى ؟عرفت ياغبى ؟ عرفت إنك عشان تكون مدير مدرسة فلازم على الأقل تحط شخصيتك وكرامتك وتلفهم فى ورقة سوليفان وتحطها تحت برنيطتك حتى لايدوس عليها أحد على الأقل ، أو تخيطها فى قطعة قماش خضرا وتعلقها على صدرك علشان ما يحسدوكش على الأقل ، حتى لوعايز تبقى مدرس محترم . . . لأليه هتروح بعيد ؟ حتى لوكنت فراش بياخذ فى الشهر ٩٠ تومان؟فلازم تنزل فى وسخ الحوض لحد رقبتك ، وده كمان ما فيهوش أى راحه ، كله فى خدمة الحكومة . . . الله يلعنك . بتقول إيه ؟ . . . » كنا نقطع الطريق فوق مربعات الطوب والجبس والأسمنت . حراس الأهالى المحترمين القادمين فى المنطقة ، لا أعلم هل صدرت عنى آهة أو أننى قلت شيئا جعل الاثنين يلتفتان إلىّ ، وقال السكرتير :

- « شفت حضرتك اتصرفوا معانا إزاى ؟ ده حتى بسجادة واحدة من سجاجيده حضرته يشترى مدرسة بحالها . »

كان يريد أن يبرر طريقته فى الاستجداء ، قلت :

- « طالما إن شغلك مع الألف بـ متقيسش نفسك بحد ، علشان ده يجيب الحسرة . »

وقال مدرس الصف الرابع :

- « حتى لو كانوا شتمونا كنت مشيت من عندهم وأناراضى . لازم الواحد يكون واقعى ، يارب بس مايندموش . »

أخذنا نخرج آلام قلوبنا لفترة بعدها ، وما أن وصل الأتوبيس وركبنا حتى كنت قد علمت أن مدرس الصف الرابع قد هجر زوجته ، وأن والدة السكرتير قد تم تشخيص مرضها على أنه سرطان، وبعدها تصبحوا على خير .

مضى يومان كاملان لم أذهب فيهما إلى المدرسة. لقد أصابنى الخجل ، إذ كيف أستطيع أن أنظر فى وجه أى منهم ، فى نفس هذين اليومين حضر إلى المدرسة الحاج نفسه ومعه ثلاثة منهم لتفقّد الأمور على الطبيعة وتسجيل كل شىء . وكان السكرتير يقول : حتى الأطفال الذين يلبسون أحذية وطواقى تجدها ممزقة متهرئة . و ٨٠ زوج من الأحذية والملابس . وبداية من اليوم الرابع أخذنا نرسل الفرّاش الجديد برفقة عشرة من التلاميذ كل يوم مع انتهاء الحصة الأخيرة ليذهبوا إلى مكتب الحاج ، وفى اليوم التالى كان عدد الأحذية يزداد ، وكان الخيّاط قد حضر إلى المدرسة ليأخذ مقاسات التلاميذ ، وتقرر أن تكون الملابس جاهزة بعد عشرة أيام ، أحسست خلال الأيام

التالـية أن النساء اللائـى يقمن بغسـل الأوانى والصحون علـى شاطئ الترعة فى طريقى إلـى المدرسة يرسلن إلىَّ بتـحـياتهن ، وذات مـرة سمـعت إحداهن تدعو لى بالخـير . لكن الأمر سـاءنى بشكل لدرجة أننى كنت أتحاشى النظر إلى أحـذية التلاميذ ومـلابسهم ، روحى فداء تلك الأحذية الممزقة . . . نعم - لقد جـعل الاستجداء مدرستنا تلبس جديداً فى جديد . .

- ٨ -

لم أكد أنتهى من متاعب بداية عملى فى المدرسة حتى دخل علىَّ فى صبيحة أحد الأيام أحد أولـياء الأمور . حيّانى وسأل عن الأحوال وتصافحنا ، وجلس،وضع يده فى جيبه العلوى وأخرج ست صور ، وضعـها فوق مكتبى . ست صـور لامرأة عارية ، عـارية تماماً ، كل صورة بوضعٍ مختلف ، وفى كل وضع ألَف إغراء . ماذا يعنى هذا ؟ نظرت إليه نظرة حـادة . كان رَجلاً مـهندماً يبدو عليـه أنه موظف أو سمســار عقارات . أحيـانًا كنت أشاهد هذه النوعيـة من الصور لكنى أتذكر أننى لم أكن أرغب مطلقًـا أن أدنس مخيلتى بصـور تلك النساء اللاتى يبتسمن قسراً عند تصويرهن ، والتى تجدها فى جيب أى رجل غبى أو عنين لغـرض ما . كنت أعتبـر أنه انتقاصاً من قـدر نفسى أن أرى هذا الجانب من الحياة الذى صور بأمر من مصور ما فى أحد بيوت الدعارة بالمدينة ولنفس هذه الأسباب كنت دائمًا أنظر بنفس هذه النظرة إلى تلك الصور التى تعلق على المشاجب فى محلات الجزارة لكى تثير شهيتك للحم .

أما الآن فقـد جاءنى رجل مهندم ، ملابسه مـكوية ليفرش ست صور من نفس هذه الصور فوق مكتبى ، وأخذ يدخِّن سيجارته منتظراً أن تمتلأ عينىّ بـوقاحة هذه الصور . أخذتنى الدهـشة ! إذ لم أتصور مطلقاً أنه عندمـا تكون مديراً لمدرسة سوف تتعـرض لمثل هذه المتاعب لقد أخطأت فى حساباتى ، حتى فى ذلك اليـوم الذى حضر فيه ذلك

الشرطى النحيل طويل القد إلى المدرسة ليشكو من ابنه ، وعندما علم أننا قمنا بتكسير العصى حل حزامه وربطه حول قدمى ابنه وقام بطرحه على الأرض ، وطلب من السكرتير بإلحاح أن يضربه على باطن قدميه بالمسطرة عشر مرات ، لم تأخذنى الدهشة ، لأنه كان شرطيًا على أى حال ولديه الأسباب التى تدفعه لذلك . . . كان يقول :

- « أمال عشان إيه ربنا خلق الشوم والعصيان والكرابيج ؟ »

فـإلى هذا الحد كـان يعتـبـر أدوات عمله من ضـروريات الخلق والخليقة . ولهـذا لم يكن بمستغرب عليـه أن يفعل ذلك . ولكن من يكون هذا هو الآخـر ، ومن أين أتى ؟ أن أرى الصـور الست كلهـا استغرق هذا بالطبع أكثر من دقيقة . كانت كلها لامرأة واحدة . وجال بخاطرى أن آلاف النسخ بل الملايين منها توجـد الآن فى جيوب رجال كثيرين فى كل مكان ، وكم سـيكون أفضل لو أنى كنت أعرف هؤلاء الرجال أو أراهم ، قطع تفكيرى هذا دخان سـيجارة الرجل الذى ملأ أنفى . لايمكن أن أهرب أكـثـر من هذا . إذ أنه مـازال يجلس أمـام وجهى بكل ما لديه من وقـاحة . ووجهت نظرى إليه فبـدا لى شرساً كأنه استعد لأن يضرب شخصاً ما ، وقد احمر وجهه وأخذ يبحث فى دخان سـيجارته عن سند للجـرأة التى يريد أن يتحـدث بها ، غطيت الصور بإحـدى الأوراق المليئة بالتـفاهات التى كنت قد سـودتها ذلك اليوم ، ثم سألته بتلك اللهجة التى عادة ما نبدأ بها العراك :

- « كويس ، طلباتك ؟ »

ودوّى صوتى فى الحجرة ، كان من الواضح أننى إذا لم أبدأ كلامى بحسم وحزم ، فإن هذا الرجل الذى كان قد ركب حصانه سوف يدخل به الآن . فتحرّك حركة عبرت عن انكماشه وضعفه ، وأخفى جرأته ووقاحته مع يده التى وضعها فى جيبه ، وفى هدوء أكثر من حالته التى دخل بها علىّ قال :

- « أقول إيه ؟ اسأل مدرسكو بتاع الصف الخامس . »

ارتحت بهذا وبدأ هو يقول : -

- « إيه المدرسة دى ؟ تتهد على اللى فيها . وا إسلاماه ! طب إزاى ولاد الناس ييجوا المدرسة ، وبأى ثقه ؟ » .

وما إلى ذلك من كلمات .... كان يقول الصدق . والكذب أيضاً .

وخلاصة الموضوع أن مدرس المهارات فى الصف الخامس كان قد أعطى هذه الصور لابن حضرته لكى يلصقها على قطعة من خشب الأبلكاش ويرصّع إطارها بالخرز ويحضرها معه ، وكان باقى الموضوع واضح ؛ فإما أنه أب وسواسى قلوق يدس أنفه فى كل ما يفعله ابنه ، وسوف يتسبب قريبًا فى فرار هذا الابن هرباً من هذه الرقابة اللصيقة أو أن ابنه من هؤلاء الأطفال المدللين الذين لايشربون الماء حتى دون إذن من بابا وماما . لافرق فى ذلك ، على أى حال ربما يكون مدرس الصف الخامس قد أخطأ فى تقديره ولم يحتط للأمر . والآن ماذا

أفعل أنا ؟ بماذا أرد عليه ؟ هل أقول له إننى سوف أطرد هذا المدرس ؟ وهو الشىء الذى لا أستطيع أن أفعله ، فليس فى الأمر ما يدعو لذلك ، ماذا يفعل هو ؟ من الواضح أنه ليس لديه شخص فى أى بيت أو فى أى مكان من المدينة يسعده بمثل هذه الصور على الورق . ولكن لماذا إذن بهذه الطريقة ؟ أهو أحمق إلى الدرجة التى لايعرف معها حق تلاميذه ؟ ولايعرف حتى ذلك التلميذ الذى يضع فى يده مثل هذه الصور ؟ . . . . قمت واقفاً وناديت على السكرتير . فجاء بنفسه؛ كان يقف منتظراً فى الردهة ، كعادته دائمًا . كنت أنا آخر من يعلم بما يحدث فى المدرسة ، وإذا كانوا قد تمكنوا من إنهاء المشكلة وحلها (سواء إلى الأفضل أو الأسوأ) لما كنت قد علمت بها أصلا . أما وقد وصل الأمر إلىّ ، فمن الواضح أنهم عجزوا عن الوصول إلى حل فيه . دخل السكرتير : آلمنى جداً حضور ولى الأمر هذا وأن يُخرج مثل هذه الصبور من جيب ابنه - من المحتم أنه فعلها بنفس الوقاحة التى وضعها بها على مكتبى - وعندما أدرك أنه قد أُسقط فى أيدنيا نحن الاثنين ، وركب حصانه وأخذ يقول : - سوف أفعل كذا وكيت ، وسوف أغلق باب المدرسة ، وسوف استشكل الأمر أمام وزير التعليم . . . وما إلى ذلك من فارغ الكلام . . . من المؤكد أنه لم يكن يعلم أنه إذا أغلق باب أى مدرسة يكون قد أغلق بذلك باب إدارة بأكملها . كأنه يريد أن يقطع عيش أمثاله بجهالته . ثم عاد ليتحدث عن قيم الإسلام . وعن مكانة المدرس والمعلم ومقامه ، ومن المهد إلى اللحد ، وكلام كثير من ذلك الذى تمتلأ به الأفواه . أما أنا فلم

أستطع طوال وجـوده أن أجمع شتات فكرى . كان يريـد أن نستدعى ابنه حتى يشهد بما حدث ويشرح الموضوع بالتفصيل ، وبذلنا أقصى ما فى وسعنا حتى أفـهمناه أن ابنه يكفيه ما عـاناه ، ووعدناه بأننا سوف نشوى معلمه فى الشمس ، وسوف نقطع عيشه ، بدأ السكرتير يهدّىء خاطره وتبعته أنا فى ذلك ، لم يكن لدينا وسيلة لتطييب خاطره سوى ذلك . وبعد أن ذهب تركنا نحن الاثنين مع ست صور لامرأة عارية ، غطت عورتها تلك الورقة التى سودتها بقلمى فى ذلك اليوم .

بعد أن لملمت شتات تفكيرى طلبت من السكرتير ألا يتحدث مع أحد حول هذا الموضوع ، وأغلقت على هذا الموضوع برمته مع الصور درجْ مكتبى أسبوعاً كاملاً ، بعـدها استدعيت التلميذ ، لم يكن يبدو عليه أى سـمة من سمات الـتدليل أو أى شىء آخر ، وما زال أمـامه سنوات حـتى يصل إلى سن البلوغ . كان أبيض الـوجه ، أقصـر من طفل فى مثل سنه ، كان كتفه يرتفع عن مستوى المكتب بمقدار إصبعين فقط ، كان يبدو عليه بوضوح أنه ينتمى إلى أسـرة كثيرة العيال ، فقر دم ، وسوء تغـذية . وأدركت أن معلمه لم يجانبـه التوفيق كثـيراً فى معرفته به بمعنى أنه لم يزد الطين بلة إلى حد كبير . قلت :

- « أنت ليك إخوة وأخوات تانى ؟ »

- « حـ . . حـ . . . حضرتك عندى حضرتك »

- « أنت وريت الصور لبوك بنفسك ؟ »

- « لا . . . والله حضرتك - أحلف بربنا . . »

- « طب . . . إيه اللى حصل ؟ »

ورأيت أنه أوشك أن ينهار من الخـوف ، هذا على الرغم من أن عصى السكرتيـر قد تم تكسيرها جمـيعاً ، لكن خوفـه كان من كونى المدير وبعيداً عن شـخص السكرتير والمدرسة والعقـاب . حيث كانت المدرسة كلها قد أمنت جانب السكرتير نفسه ، فوجدت نفسى مضطراً لأن أهدىء من روعه .

- « ماتخافشى يابابا - مش هعـملك حاجة . الغلط من حضرة المدرس اللى إدالك الصور . وأنت ما عـملتش حاجة وحشه ياحـبيبى . . .فهمت ؟ . . . . بس أنا كنت عايز أشوف إزاى الصور وقعت فى إيد باباك ؟ . »

- « أ ص . . . . أ صـ. . . . . . أصل حضرتك . أصل . . »

كنت أعرف أنه يجب أن أساعـده حتى يتكلم . . ولكن أساليب المباحث هذه كانت لاتروق لى ،و كذلك أسلوب التـحقيق ، وخاصة مع طفل هرب الدم من وجهه ، ولم أشأ أن تتحول القضية لأن أحس أنا نفسى مـعها بأنى أقـوم بتعذيب هذا الطفل ، كـما أنه لا يصح أن أقول له ذلك . والسكرتير كان له عـيونه بين الأطفال وكنت أعرفهم. وإذا كنت تركت له هذا الموضوع لكان قـد أنهاه فى حينه . إذن يجب علىَّ أن أتحدث رغماً عنى. قلت : -

- « تعرف يا بابا ؟ إن الصور نفسها ما كانتش حاجة وحشة ، إنت نفسك فهمت هى كانت إيه ؟ ؟ »

- « أصل حضرتك .... لاحضرتك ... أختى حضرتك .... أختى كانت بتقول ... »

- « أختك ؟ أصغر منك ؟ »

- « لا ... حضرتك . أكبر . كانت بتقول حضرتك .... بتقول حضرتك .. مفيش بس إحنا اتخانقنا على الصور . »

إذن . اتضحت الأمور ؛ فقد أظهر الصور لأخته التى ملأت كراريسها وكشاكيلها بصور الفنانين . فاحتالت عليه ، أما هو لم يكن على استعداد لأن يعطيها ولو حتى صورة واحدة منها ؛ فهل يكون موضعاً لثقة معلمه ويفعل مثل هذا الفعل القبيح ؟ ثم ماذا يقول للمدرس بعد ذلك ؟ فاضطرت أخته لأن تفضح أمره مما دفع أبيه أن يقدم على ما لم يفعله من قبل ويفتش حقيبته ليلاً ليعثر على الصور ويعاقبه أشد العقاب ، وانتهينا من هذا الموضوع .

بعدها استدعيت المدرس ، كان يعلم سبب استدعائه ، وكانت حالته تنطق بأنه ليس لديه ما يقوله ، وبعد أسبوع من الإمهال مازال فى حالة تعجب من الجرأة التى واتتنى على ألا أرفع يدى عن شخص أعزل مثله ، حقيقة أن الخجل انتابنى قليلاً . ولكن ما من بد من أن نطرح القضية معاً ونناقشها بشكلٍ ما ، فى البداية طمأنت خاطره بشأن

الطفل ، وأنه لم يرتكب خطأ ، ثم قلت له اجلس ، وجاملته بسيجارة ورويت له هذه الحكاية :

فى بداية تأسيس وزارة المعارف وصل إلى الوزير ذات يوم أن المدرس فلان على علاقة مشينة بالطفل الفلانى ، فطلبه الوزير على الفور وأخذ يسأله عن حاله وأحواله ، .ولماذا لم يتزوج بعد وبالطبع وقع اللوم فى النهاية على قلة الإمكانيات وعدم مقدرته المالية على الزواج ، فأمر الوزير بمنحه مساعدة مالية بالقدر الفلانى حتى يستطيع الزواج ويدعوه لحفل عرسه وانتهت القضية بهذه السهولة . ثم أردفت قائلا : - هناك الكثير من الشباب الذى لايستطيع الزواج الآن ، كما أن وزراء التعليم هذه الأيام على انشغال مستمر بالأحاديث الصحفية والإذاعية وحفلات الاستقبال ومآدب التشريف ، ومشاغلهم على أى حال أكثر مما كانت عليه فى العهود السالفة ، ولكن أبواب بيوت العائلات مازالت مفتوحة . . . وما إلى ذلك من كلام منمّق . . . . ولم أدع له فرصة لينطق حتى ولو بكلمة واحدة ثم سلمته فى يده الصور التى كنت قد وضعتها فى مظروف ، ووصلت جرأتى إلى أعلى درجاتها بقولى له : -

- « هيكون ضررهم أقل بكثير لو ما لصقتهمش على أبلاكاشه ».

- ٩ -

استغرق انتقال راتبى إلى قائمة إدارة المنطقة التعليمية ثلاثة أشهر . وكم سعدت بهذا التأخير ! لأنه فى نفس هذه الفترة قام صرّاف المنطقة التعليمية بالاستيلاء على مرتبات جميع المدرسين والفرّاشين والسادة المديرين ومعها راتب مدير المنطقة التعليمية نفسه ، وجميع البدلات وعلاوات الاغتراب والإعالة والزواج وهرب . رجال التعليم المتسولون الجياع خاويو الجيوب ذوو الأيدى الممدودة ، قيل أنها كانت تبلغ ٥٠ ، ٦٠ ألف تومان ، وأيقنت أن كثيراً من المنازل الواقعة فى دائرة المنطقة التعليمية قد حرمت من إفطار الصباح . ولكن المفيد فى هذا الموضوع كان الفراش الجديد فى مدرستنا ، إذ كان يملك رصيداً كبيراً من المال وقام بإقراضهم جميعاً ، وشيئاً فشيئًا أصبح بمثابة بنك تسليف للمدرسة فمن راتبه الشهرى الذى يزيد بقليل عن ٣٠٠ تومان لم يكن ينفق منه حتى ٥٠ توماناً ؛ لايدخن ، ولم يكن من مرتادى دور السينما ، ولم يكن ينفق خارج احتياجاته الضرورية ، بالإضافة إلى هذا كان يعمل بستانى لدى أحد الأثرياء فى المنطقة . . . حديقة ومعدات ولوازمها وبالطبع مطبخ كبير كامل . . . كان لايداوم على التسبيح هكذا هباءً ، وأدى الاحترام للمال الذى يملكه لأن تسد الفجوة بينه وبين المدرسين لمدة طويلة . لم أسأل عن شىء ، لكن كان من الواضح أنه حتى لم يأخذ منهم فائدة على هذه القروض أيضاً .

وأدى ذلك أيضًا إلى أن تمر الأزمة على مدرسينا فى شىء من السهولة واليسر ، وأدركوا فى سرعة مذهلة أن فراشًا غنيا مثله يفيد بشكل أكثر بكثير عن مدير لالون له ولا رائحة ، هذا عن المدرسين ، أما أنا فكنت لاأزال أحصل على راتبى من المنطقة التعليمية المركزية . ولابد أن الآخرين أيضاً قد اعتادوا بمثل هذه الطريقة على تأخير رواتبهم ، وكأن شيئاً لم يحدث .

كان الوضع فى منتهى الهدوء . وأصبح أخينا الصرّاف كأنه قطعة خبز بلعها كلب ، بعدها بخمسة وعشرين يوماً ظلت الفصول تعمل كسابق عهدها ، حتى تنتهى التحقيقات ويصل الشيك مرة أخرى من وزارة المالية ، وظلت القرارات توقّع ، والآلات الكاتبة فى الإدارة التعليمية مستمرة فى طقطقتها منذ الصباح حتى الظهيرة ، ودفاتر التسجيل تسوّد بسواد الحبر ورقةً ورقة . وكنتَ فى أى وقت ترى فيه مدير المنطقة التعليمية ، تراه قادماً من الطريق يتصبب عرقاً ويروى ما فعله فى إدارة الخزانة العامة ، وماذا قال للوزير .

مع مرتّبات الشهر التالى انتقل اسمى إلى قائمة الإدارة التعليمية ، فى هذه المدة كنت أقوم بنفسى بتوقيع استمارة استكمال العمل الخاصة بى وأذهب بها إلى المدرسة التى كنت أقوم بالتدريس فيها من قبل لكى أحصل على راتبى ، فعلى الأقل كانت هذه هى الميزة فى أن أصبح مديراً ! أن تستطيع بتوقيعك أن تقدّم نفسك لتحصل على راتبك من جهاز المحاسبة والخزينة الذى سوف يستصعب القائمون عليه ذلك ؛

تنفيذاً للعدالة الإلهية . فيجب أن تكون من العاملين فى الحكومة حتى تعرف قدر هذه الميزة . وربما كان هذا هو السبب الأكبر فى أن المدارس لايمكن أن تكون فى أى وقت من الأوقات بلا مدير أو شخص يأمر فيها وينهى . ولكن للأسف كان صرّاف تلك المدرسة أيضاً ليس على دراية كافية أو خبرة بعمله ، وعندما حان له أن يدرك أن ورقة أو استمارة استكمال العمل الخاصة بى كانت بتوقيعى أنا ، كان راتبى قد انتقل من عنده ، وعلى الرغم من أن سير الأوراق فى الإدارة كان بطيئاً إلا أنه كان أسرع من فهم هذا الصراف وإدراكه للموضوع .

عندما كان يحين وقت صرف المرتبات كان المدرسون يتنظمون فى عملهم ، وتدار الفصول بشكل كامل ثلاثة أو أربعة أيام شهرياً حتى أسلّم كل منهم استمارة استكمال عمله . وفيما عدا تلك المرة - التى كانت فى بداية استلامى للعمل - والتى قررت فيها خصماً لمدرس الحساب فى الصفين الخامس والسادس ، لم يعد لى أى علاقة بالقلم الأحمر بعد ذلك وارتاح بالهم جميعاً بهذا الموضوع . لكن راتبهم كان على أى حال معلقاً بتوقيع ، وإذا كان هذا التوقيع يتم بيد مدير مثلى فمن المحتم أنه لن يتأخر أبداً ، فقد كنت إنساناً فى النهاية مثل جميع الناس ومن الممكن أن يتغيّر وضعى فجأة وأقع تحت طائلة واحد منهم ، لابد أنهم كانوا يتحسّبون دائماً لذلك فقد كانوا يتنظمون فى عملهم ومواعيدهم دائماً قبل موعد صرف المرتبات بيومين أو ثلاثة . عندما ذهبت إلى الإدارة التعليمية لاستلام راتبى كان المكان مزدحماً

لدرجة أننى قلت لنفسى ليتنى لم أنقل راتبى أصلاً . انتصف النهار ومازال الجميع رجالاً ونساء يتطاولون برؤوسهم وأكتافهم ، تماماً مثل محلات بيع الخبز أيام الحرب . لايصح أن تصرف نظر وتذهب إلى حال سبيلك . فأمام الخزينة يصبح الاعتزاز بالنفس والإحساس بالعظمة أو أقل تأخير ذنب كبير كفارته غرامة مالية ، أليس من يعمل فى الحكومة ما هو إلا جوال مفتوح أمام الخزينة ؟ . . . . وإذا لم تذهب فيجب أن تظل مع هذا الزحام واقفاً على قدميك حتى الثانية بعد الظهر . أخذت أدخن سيجارة تارة ، وتارة أتمشّى قليلاً فى انتظار أن تهدأ هذه الضجة وتارة ثالثة أرد على تحيات هذا وذاك . لقد أدرك كل هؤلاء الآكلين من موائد الحكومة أننى مدير ، ولابد أنهم كانوا جميعاً من السذاجة بمكان لدرجة أنهم اعتقدوا أنهم ربما يصبحون يوماً ما تحت رئاستى فى المدرسة ، فهمت فى ذلك اليوم أن واحداً من كل ثلاثة من هؤلاء قد اقترض نصف راتبه سلفاً أو حصل على سلفة من قبل ، أو اشترى سجادة أو سخّان للشاى بالتقسيط وعليه أقساط وكمبيالات يجب أن تخصم من راتبه ، والصراف السابق الذى سرق المرتبات تسبب فى حدوث حالة من الفوضى فى أمور الحسابات والكمبيالات ، وهاجت الدنيا . كانوا يبحثون عن الكمبيالات والإيصالات ويكيلون السباب للصراف السابق ، ويلتمسون إمهالهم هذا الشهر - كانوا جميعاً يقومون بمراجعة حساباتهم وكأنهم قد أصبحوا علماء فى المحاسبة ، وإذا ما حصل أحدهم على راتبه قبل مجيىء دوره كنت تسمع أصوات الجميع وقد ارتفعت وتعالت . وقد

ضايقنى مـراعاتى للأدب والتزامى ذلك اليوم لدرجـة أحسست مـعها بمغبة تأخير راتبى ليومـين أو ثلاثة . أما أسوأ ما كان فى هذا الموضوع هو أننى وجدت راتـبى أعلى راتب فى قائمة مـرتبات المدرسـة . كان تمامـاً مثل أعظم ذنب فى سـجل أعـمالى ، فـقد كنت أحـصل على ضعف راتب فـرّاشنا الجديد ، وقـد تملكنى الخجل من مـعرفة مـقدار رواتب الآخرين لدرجة أحـسست معها أننـى أسرق أموالهم ، ظللت واقفاً لمدة ساعتين كاملتين أقدم الجميع على نفسى وكأنى أكفر عن ذنبى طوال هاتين الساعتين لم أفكر ولو لمرة واحدة فى أن : كل هؤلاء ليس لهم حتى ولا ثلث خـبرتك وأقدمـيتك ، ولاحتى نصف قصـاصات أوراقك التى طبـقتهـا ولففتـها ولاتعلم فى أى مـصرف من مـصارف حيـاتك ألقيت بها ! لـكنى أفكر بهذا التفلسـف الآن مع نفسى . فى ذلك اليوم كنت أحس فقط بأنه عندما يحصل الآخرون على هذا المبلغ التافه كمرتب لهم وتكون أنت مـوظف مجهول فى الحكومة فلا يمكن أن تعتبر نفسك المسـئول عن ذلك . ولم أستطع أن أرضى نفسى بهذا الإحساس وعنـدما خلا المكان وقمت بالتـوقيع عشر أو خـمس عشرة توقيـعات وقعت عـينا الصراف علىّ ومع ألف اعـتذار وضع فى يدى ٦٠٠ توماناً ، أموال مسروقة .... مال حرام !

- ١٠ -

كـانت باكورة الجليـد لاتزال على الأرض حـيث تعرّض مـدرّس الصف الرابع لحادث ، دهمته فيه سيارة . وكعادتى فى أوقات العصر لم أكن فى المدرسـة . كـان الوقت عند الغـروب عندمـا جاء فـرّاش المدرسة القديم عند باب بيتنا بخبـره ، فجريت إلى ملابسى ، وخلال استعدادى للذهاب معه كنت أسمعه وهو يحكى الموضوع لزوجتى .

كعادته عصر كل يوم خرج مـن المدرسة ، وكان يسير مع مدرس آخر من مدرسى المدرسـة ، حيث دهمته سـيارة تحتها . كـانت سيارة أحد الأمريكيين ، سكن مؤخراً فى منزل بـنفس المنطقة حتى يأتى معه بالميـاه والكهرباء إلى الحى . . . وحكى لى البـاقى عندما خـرجنا من المنزل. . .يقال إن أخينا كان يقود السيارة بنفسه وبعدها خاف وهرب . وأن الأطفال هم الذين عادوا بالخبر إلى المدرسة وقبل أن يصل الفرّاش وزوجـتـه كـان الأهـالى ورجـال الشـرطة قـد أركبـوه وحـملوه إلى المستشفى . لكن كان يبدو من الدم الذى كان على الأسفلت وأحاطوه بقطع الحجارة أن جـثته فقط هى التى وصلتْ إلى المستـشفى . عندما وصلتُ إلى الأتوبيس أدركت أنه سلحفاء لن يسعفنى فصرفت الفراش وقفزت أنا داخل تاكسى ، فى البداية ذهبت إلى مخفر الشرطة الجديد الذى كان قد تم فتحه مؤخراً بناء على طلب المجلس المحلى فى المنطقة القريبة من المدرسة ، وبعد السـلام كان الشرطىّ المناوب فى المخفر هو نفس الشـرطى الـذى كان قـد حضـر إلى المـدرسـة وقام بضـرب ابنه

بنفسه ، وبعـد المجامـلات والتـرحيب أطلعنـى على المحضـر وملف الحادث ، لكن المحـضر لم يرد به أى ذكر صـريح عن الشخص الذى كان يقود السيارة ؛ تقرير شرطىّ الدورية وتوقـيعه وبصمته ورقم دفتر السجل فى مخفر الشرطة وكل شىء تمام . لكن أحداً لايعلم بالتحديد ما الذى حـدث لمعلم الصف الرابع . كان الشرطى المناوب فى المخـفر عليمًـا ببواطن الأمـور إلى درجة أنه أبلغنى أنه فى مـثل هذه الحالة « وطبقًا للمـقررات الإدارية » يذهب أولاً إلى إدارة الشرطة ثم إلى دائرة الحوادث ثم إلى المستشفى . ولو لم يكن هذا الشرطى المناوب يعرفنى من قبل لمـا كـان قد سمح لى بالتأكيـد أن أقرأ محضـر الحادث بهذه الطريقة الفـاحصة . أحسست أننى أصـبحت مشهـوراً إلى حد ما بين أهالى المنطقـة وقد أوشك أن يغالـبنى الضحك من هذا الإحـساس ، واصلتَ طريقى بنفس التاكـسى ؛ متعقبًـا «نفس خط السير الإدارى » . . . فى الساعة الثامنة كنت أمام بوابة المستشفى . حتى لوكان سليماً ومر بهذا الخط الإدارى منذ الرابعة والنصف حتى هذا الوقت من الليل فمن المحتم أن شيئاً قـد حدث له ، مثلما حدث لى الآن . فوق بوابة المستشفى كُتب « ممنوع الدخول بعـد الساعة ٧ » كانت بوابة المستشفى كبيـرة جداً تفوح منها رائحـة باب مغسلة الموتى أو المشـرحة . قرعت الباب ، ومن وراء البـاب سمـعت أحـدهم يـكرر علىّ مسـا معى نفس « الآية » التى كُـتبت فـوق البوابة . رأيت أنه لافـائدة فى ذلك ويجب أن أستمد العون والجرأة من شىء ما . من قدرة ، من مكانة ، من هيـئـة ، من أى شىء ، ضـخـمت من صـوتى وقلت : - « أنا

. . . . كنت أريد أن أقول إننى مدير المدرسة ، ولكننى تراجعت من فورى . فلابد أن أخينا كان سيقول : - « مدير مدرسة إيه وزفت إيه ؟ » فمهما كان هو ليس أكثر من بواب وحارس على مثل هذه البوابة الضخمة ، كما أنه ليس الشرطى المناوب فى مخفر الشرطة حديث التأسيس حتى يحترم مدير المدرسة فى منطقته . وبقليل من الرزانة والهيبة أكملت جملتى على النحو التالى :

. . محقق وزارة المعارف »

حيث علا صوت كالون الباب ، وفتح الباب قليلاً ، وكنت قد غيّرت من هيئتى لتتناسب مع صوتى . وازدادت فتحة الباب ، حيانى «أخينا» بعيونه ، وأزاح البالطو جانباً . ولم أر شيئاً آخر غيره . دخلت وبنفس الصوت سألته : - مدرس المدرسة الذى أصيب فى حادث . . .

حتى فهم آخر سؤالى . نادى على أحدهم وأرسله ورائى : الدور كذا غرفة كذا . . . وظهرت خمس أشجار أو ست من أشجار البلوط معدودة وسط الظلمة ، ولكن لا تفوح منها أية رائحة صمغ ، كانت رائحة الكافور فقط هى التى تملأ الهواء ، رقيقة جداً ، من الفناء إلى ممر ومنه إلى فناء آخر غطى الجليد نصفه ، كنت أجرى إلى درجة أن أخينا الذى ورائى كانت أنفاسه تتلاحق خلفى . لم أدرك أكان نحيفاً أم بديناً بمعنى أننى لم أره أصلاً ، لكن أنفاسه كانت تتلاحق لدرجة شعرت معها باللذة لأننى أجبرت واحداً من هؤلاء

المتقلبى المزاج « دعك من هذه » لأن يجرى خلفى ، الطابق الأول ... والثانى ... والرابع ، أربع مجموعات من درج السلم ، ثم ممر مظلم تملأه رائحة خاصة والساعة فوق الحائط تشير إلى الثامنة والربع ، صوتها يتتابع ويرد عليه صوت حذائى فوق أرضية الممر ، وكنت قد تقمّصت هيئة مسئول فى المباحث يذهب إلى منزل شخص متهم لضبطه وإحضاره ، كنت على استعداد لأن أصبح فى أذن أول من يقابلنى أن يقف أمامى ويقول لا . كنت أستمد العون من أى شيء لكى أضفى الخشونة والغلظة على شخصى إلى درجة ورد معها على خاطرى ما حدث فى تلك الليلة وتلك الجلسة وموضوع « أمن يجيب » وما حدث فيها من تذلل وخضوع ، الناس يبنون بيوتاً ليأجروها بالدولار ومعلم الصف الرابع فى مدرستى تدهسه سيارة مستأجريهم ، وأنا أسعى فى هذا الوقت من الليل وراء سوء حظ مجهول لا دخل لى فيه . مرّت على خاطرى تلك الأفكار خلال لحظات معدودة وقفتها منتظراً مرشدى ، أى أننى جعلتها تمر على خاطرى سراً حتى وصل «أخينا» تتلاحق أنفاسه ، أشار إلى باب فدفعته ودخلت . ازدادت حدة الرائحة وأصبح الظلام أشد . عنبر تملأه الأسرة وصوت حذائى وصوت خرخرة أنفاس شخص ما . حول أحد الأسرة وقف أربعة أشخاص .

عندما وصلت إلى السرير أحسست أن كل ماتظاهرت به من خشونة وغلظة قد ذاب وأخذ يسيل على رأسى ووجهى .

كنتُ قد قطعت الطريق كله جرياً ، وقد انقطعت أنفاسى وقدماى ترتعدان هاهو معلم الصف الرابع فى مدرستى ؛ قد تمدد متصلباً ترتفع بطنه ، وكأن هيكله الذى يشبه هيكل المدير العام قد ضغط بطوله بين فكى منجلة وبدا فى عينى أقصر كثيراً مما كان عليه عندما كان واقفاً على قدميه ، كانت رأسه بوجهه خارج الملاءة التى تغطيه ، وتحت الملاءة وفى نفس المكان الذى يجب أن تشغله قدمه اليمنى ظهر ارتفاع ونتوء بحجم الوسادة . كان الدم قد غُسل عن وجهه لتوه وظهرت الزرقة فى مواضع متفرقة منه كان فى لونه يشبه تماماً مكان لطمة على وجه تلميذ . ابتسم عندما رآنى - أى ابتسامه ! لعله أراد أن يقول إن المدرسة التى لايكون مديرها موجوداً فيها وقت العصر لابد أن يحدث لها ما حدث ، لكنه لم يكن يستطيع أن يتكلم فقد كان فكّه مربوطاً بمنديل بنفس الطريقة التى يُربط بها فك الميت ، لكن الابتسامة كانت على وجهه ، ولم يكن هو كذلك فوق سرير المشرحة . ابتسامة تجمدت على وجهه بدلاً من بقع الدم ، كانت تماماً مثل مياه الحوض فى برودة الشتاء الأولى ، تضطرب شيئًا فشيئًا ، ثم تتجمّد فى طيّات متتابعة ، ثم تتحول إلى جليد . هكذا كانت الابتسامة تضطرب على وجهه وتضطرب حتى تتحول إلى جليد وتجمُّد .

« بس ليه أنت تعرض نفسك لحادث زى ده ؟ . . . . » أحسبنى وجهتُ إليه مثل هذا السؤال . لكننى عندما رأيت أنه لايقوى على

الكلام ولا يستطيعه ، وبدلاً من أى رد يرسم على وجهه نفس الابتسامة الجامدة الباردة ، أخذت ألوم نفسى بدلاً منه : -

« بس ليه ؟ ليه بس تاخذ معاك هيكل المدير العام ده . . . هنا وهناك وبالطريقة دى ! وتخلّيهم يضربوك ؟ تخليهم يدوسوك ؟ هو أنت ما كنتش تعرف إن المدرس مالوش حق فى إنه يكون له جسم بالشكل الحلوده ؟ ليه بس تكون ملو هدومك وتملا العين كده ؟ حتى الحارة كنت بتملاها . كنت بتسد السكة ، هو أنت ماكنتش تعرف إن الشوارع والمرور فى المدينة والطرق المسفلتة كلها معمولة مخصوص عشان خاطر عيون اللى بيلفّوا الدنيا وهمه داخل السيارات اللى صُنع بلادهم ؟ ليه بس أنت بالذات يدوسوك ؟ » كنت أقول كل هذا بمثل هذه اللهجة العتابية الخطابية ، ولست متأكداً على الإطلاق من أننى كنت أحدّث نفسى بكل هذا بصوت عالٍ ، وورد على خاطرى فجأة أن أقول لنفسى « ماتكونش أنت اللى حسدته » - وبعدها : - « غبى جاتك نيلة ! بعد تلاتين سنة وأكثر من عمرك ، تيجى تخرّف التخريفات دى ! » هكذا أخذت أعنف نفسى إلى درجة أننى كنت أريد أن أكيل السباب لأى شخص ، أن أضرب أى شخص ؛ حيث وقعت عيناى على الطبيب المنوب .

« الله يخرب بيت دى بلد - من الساعة أربعة لغاية دلوقتى والدم بينزف من الراجل ده وأنتوا ماتتحركوش ! . . . . » وربتت يد على كتفى وهدأت من صياحى ، انتبهت فإذ به والده . بنفس هيئة المدير

العام ، بنفس الشكل ، النصف الآخر من التفاحة . . . . لكنه أكثر سُمرة ، وأكثر انسحاقًا بفعل الزمن وكأن شعر لحيته الأبيض قد زُرع فى وجهه شعرةً ، شعرة ، لفحته حرقة الشمس . كان هو الآخر يبتسم ، وقد أمسك بقبعته فى يده ، وكأنه لايعرف أين يضعها . كان معه رجلان آخران ، ثلاثتهم تبدو عليهم سيماء القرويين ، فارعو الطول ، عريضو المناكب . . . وتعجبت ! إلى أى مدى هم موفورو الصحة ، جميعهم ! أهذان الاثنان كانا والديه أم ابنى أخيه أم أى شىء آخر. . . .وأخذت الأفكار تتوارد فى خاطرى حتى سمعت : -

- « مين يكون حضرته ؟ »

كان هذا ما قاله الطبيب المنوب حتى جعلنى أركب رأسى ثانيةً : -

- « إنت تقصدنى أنا . حضرتك ؟ . . . أنا لاشىء . مجرد حتة مدير . وده بقى المدرس بتاعى ، مرمى فى عنبر التشريح بتاعكم . . » وفجأة صاح فىّ عقلى « اخرس ياولد » فخرجت ، وتوقفت الغصة فى حلقى. كان قلبى يود أن يقول شيئاً آخر . أن يوماً بشىء ، بابتسامة ، بأقل رد أو نقد . . . فأنا لم أستطع حتى الآن أن أقسم بمهارة أى طبيب . إلا أننى كنت على يقين من أنه على دراية بشىء ما من علم النفس على الأقل . . . فتقدم منى فى ود . ومد يده . . . صافحته على مضض ، ثم أشار إلى زجاجة كبيرة ، عُلِّقت مقلوبة فوق السرير . وأخذ يشرح لى كأنى حمار أن الغذاء يصل إليه

بهذه الطريقة ، وأنه قد أخذت له أشعة أيضًا ، وإذا لم تتقرّح جروحه حتى الصباح ، فسوف يأخذونه لتجبيس قدمه . دخل علينا طبيبٌ آخر ، سماعة طبية فى يده والمعطف الأبيض يفوح عطراً ، حيَّانى بحركات مثلما يفعل ممثلو السينما ، وحرك صوته شيئًا فى أعماق ذاكرتى ، لكن ليس هناك ما يدعو لأن أفتش فيها . أكان تلميذاً عندى - لاأعلم كم مّرعلى ذلك من سنين - أخذ يعرف بنفسه : .... الدكتور ... ياله من زمن عجيب ! - « أى حتة من كيانك رمتها فى الأرض فى يوم من الأيام زى حبة الذرة ومعاها زواق من زواقاتك المخزونة - جت وطلعت دلوقتى . أنت مافيكش عين ياغبى ؟ أنت مش شايف إنه مافيهوش أى علامة منك ؟ إنت مش شايف ماركة شركات إنتاج الأفلام على جبهته ؟ وكمان على تصرفاته وحركاته وخرطوم السماعة الملفوف على إيده ؟ حتماً كنت بتحلم ، كان بيتهيأ لك . كنت بطمأن قلبك بس . طب لوكان ظنك صح ، اتكلم علشان نشوف دلوقتى بعد عشر سنين لسه فيك حاجة تانى تقدر تقدمها ؟ تفرقها ؟ اصحى بقى ؟ ما تفكرش فى إنك دلوقتى بقيت زى الجثة المدهوسة دى ؟ وشايل فوق وشك بس ريحة ابتسامة مرة ، ووقعت فى ايدين الكتاكيت بتوع امبارح دول ؟ دلوقتى إنت اللى متمدد فوق السرير . عشر سنين كاملة وكل لحظة فيها يطلع واحد فوق سلالم ساعات عمرك ودقايقه وأنت لسه شايل بس فى جسمك تعب الحمل ده . والكتكوت المفعوص ده والكتاكيت الثانية اللى ما تعرفهمش كلهم

خرجوا من بيضة كانت فى يوم من الأيام سور محصن حوالين شبابك انكسرت دلوقتى وفضيت تماماً ، ومبقاش من حد منهم حتى ولا ريشة واحدة وسط هذا العدم والخراب .... وأخينا ده ؟ اللى حتى ماخدش فرصته ده . وقبل ما يفرح قلبه بالشغلانة المسخرة دى ، إدّاس تحت عجل المدنية والحضارة . بقامته وفخامته دى ؟ وبراسه ولسانه إللى كان واجهة المدرسة ... » أخذت يده وانتحيت به جانباً ، وصببت فى أذنه كل ما كنت أعرفه من سيء القول ، له ولزملائه ولمهنته . وكأنى كنت أريد أنه أوصيه على مدرس الصف الرابع فى مدرستى . بعدها أومأت برأسى لأبيه . وهربت .

بمجرد أن خرجت من الباب واجهنى الفناء والجو الممطر ، سرت بخطى بطيئة ، وزفرت كل ما كنت قد استنشقته من دواء وألم وحسرة فى قطرات المطر ، حاولت ألا أكون حساساً . وبمجرد أن خرجت من البوابة الرئيسية غالبنى التفكير : -

- « وأنت مالك أصلاً ؟ وليه جيت من أصله ؟ وإيه اللى كان ممكن تعمله له ؟ كنت عايز تشبع فضولك ؟ ولا تمثل دور الإنسانية ولا نفسك إنك مدير يعرف واجبه ويكون لك مكانة فى قلب زميل ليك ؟ » .

وأخيراً وصلت إلى نتيجة أن « فريسة وقعت فى ايدين القاعدين على مكاتبهم فى المديرية والنيابة والمحكمة وإنت ما تقدرش تخلص الفريسة دى من إيديهم ، ولاتقدر تعمل أى حاجة تانى .. » وأخذت

أوقف تاكسى لكى أركبه وأعود لمنزلى ، فكرت عندها للحظة : « طب على الأقل ليه ماسألتش عن البلا إللى حصل له ؟ » وأردت أن أعود أدراجى إلا أننى لم أكن أقوى على رؤية هذا الجسم الفارع المزرق المتورم لمدرس الصف الرابع وهو ممدد فوق السرير . ربما تملكنى الخجل أو استبد بى الخوف ؛ منه أو من ذلك الكتكوت المفعوص الذى خرج من البيضة لتوه ، أو من أبيه ، أو من كل تلك الابتسامات التى ارتسمت على وجوههم جميعاً . « طب ليه إنت ما تقعدش فى المدرسة ! » .

فى تلك الليلة ظللت مستيقظًا حتى الثانية صباحاً ، وفى الصباح كتبت تقريراً مفصّلاً بتوقيع مدير المدرسة ، وبشهادة جميع المدرسين للإدارة التعليمية ، ومخفر الشرطة المحلى . بعدها أخذنا نتابع الموضوع فى إدارة التأمينات ، وتقرر أن يصرف له تسعة تومانات يومياً لتكاليف المستشفى ، بعدها بمدة ذهبت إلى المدرسة عصراً وأوقفت الدراسة ، وأرسلت المدرسين وتلاميذ الصف السادس لزيارته فى المستشفى وعيادته ، ومعهم باقة زهور وما إلى ذلك . . . . وأخذتُ أتمشى بمفردى فى المدرسة لمدة ساعة . أسبح بخيالى فارغاً من القيل والقال والدروس وأمور التعليم والتعلّم. . . . فى صباح اليوم التالى ، حضر والده إلى المدرسة وبعد التحية والسلام والسؤال عن الأحوال قال إن إحدى يديه قد أُصيبت بكسور وكذلك إحدى قدميه ، كما أصيب بنزف محدود فى المخ وأن بعض الأشخاص جاءوا لعيادته من قِبل

أخينا الأمريكى وقطعوا على أنفسهم وعداً بأنهم سوف يوظِّفونه على الدرجة الرابعة بعد أن يتعافى ، وأفهمنى دون أن يتكلم أننى قد تسرعتُ فى كتابة التقرير وإرساله دون فائدة وطالما أنى قد أرسلته بالفعل فعلىّ ألا أتابعه ، وأن الطرفين قد تراضيا فيما بينهما ، وأن الأمر أبسط من هذا بكثير وما إلى ذلك من كلمات . . . . اللعنة على هذا البلد .

- ١١ -

مع بداية عملي في هذه المدرسة ، لم أكن أهتم بشئون التلاميذ . كنت أتخيَّل أن فارق السن بيني وبينهم يكفي لأن يبعدهم عني ويبعدني عنهم . كنت قد قرأت فيما قرأته من تفاهات أن الفارق بين عمر المدرس وعمر التلميذ لايجب أن يكون كبيراً ، وأن الفارق بينهما يجب أن يكون الفارق بين جيلين ، ورجال الأمس ، وأبناء الغد وما إلى ذلك من أباطيل وتفاهات . . . كانت رأسي أيضًا في حالة انشغال دائم بعملي . كنت أغلق علىَّ باب مكتبي ، وفي دفئ مدفأة الحكومة أجعل من كل حبة قبة ، لكن هذا الأسلوب الرتيب في العمل لم يستمر لأكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة . تعبت . اضطررت في النهاية لأن أولي اهتمامًا أكثر للمدرسة ، وشيئًا فشيئًا أخذت أكتشف أموراً كثيرة . كان أحد هذه الأمور أن شئون التعليم والتدريس وياللعجب ! قد خلت من هؤلاء المدرسين والمعلمين المسنين المحنكين ، الذين كانوا على عهدنا ! أيُ رجالٍ كانوا ! وأي شخصياتٍ كانت لهم ! بلا اسم ولاعلامة ، وأي لسانٍ كان لهم وبأي سلوكٍ ميزوا أنفسهم ! أما هؤلاء فيالهم من شباب أجلاف ! يالهم من نسخٍ ممسوخة تقلد المتفرنجين دون وعي ! فلا علمٍ لهم بماضيهم ، ولاشيء يدخل رؤوسهم من تلك الإمكانيات الحديثة التي وصلت أيديهم بسبعين وسيلة ، والأسوأ من هذا كله تمكُّن العجز منهم ورسوخ الروح الانهزامية فيهم ، فلا يرد على خاطر أحدهم مثلاً أن يمد يده لمساعدة أحد أو أن يهتموا بأمر

المدرسة وشئونـها لأسبوعٍ واحد أو يوم أوحتى ساعـة ، يحضرون إلى المدرسـة ويرحلون عنها فى هدوء ورتابة ، تمـامًا مثـل زوار شاه عـبد العظيم . الشىء الوحـيد الذى يعرفـونه أن يأتوا يوميـاً متـأخرين عن موعدهم عـشر دقائق أو ربع ساعـة ، وهكذا . والأسوأ من هذا كله هو ما كانوا يتّسمون به من ضيق الأفق . فـقد شاهدت عراكاً وخلافًا وقع بينهم ثلاث مرات - على مـاذا ؟ على مزهرية ! فقد كـان لعمال البساتين فى المنطقة أبناء كثيرون فى المدرسة كل واحد منهم كان يُحضر إلى المدرسة مرة كل شهر على الأقل مزهرية مطعمة أو مدفأة يد تكون نعمة كبيرة فى هذا الجليد والبرودة . قررت فى البداية أن أزين المدرسة وأجملها بهذه الأشياء . ولكن ما الفائدة ؟ فلا أحد يقوم بريها ، ولا أحد يحافـظ عليها . صحيح أن الـتلاميذ كانوا يحـضرون الورود من أجل مدرسـيهم ، ولكن ماذا تفـعل المدرسة إذا كانت فى حـاجة لمثل هذه الورود ؟ من المحتم أن أكاديمية أفـلاطون قد تحولت إلى جنة عدن منذ أن بدأت أقدام تلامـيذها تعرف الطريق إليهـا . والأسوأ من هذا كله كـان انعـدام شخـصـية المدرسين ، وهو الشىء الذى أعجـزنى وأعجزتنى مـعه الحيلة . لم يكن لديهم مقدرة على الاسـتمرار فى أى حديث أو الدخـول فيه أصـلاً . لم يكن لديهم أى علم أو خبر عـما يحدث فى الـدنيا . . . عن الثقـافة ، عن الفنون . . . ولاحـتى عن تغـيـيـر الأسعار أو عـن أسعار الـلحوم . ياللعـجب لم يكن لهم أى اهتـمـام بأى شىء ! كنت أحس أن المـدرسين أنفـسـهـم هم الذين

سيصبحون أكثر إخفاقاً وفشلاً وتعثراً فى الفصول بدلاً من التلاميذ مع توالى الأيام ، وأن يتغيروا من سيء إلى أسوأ من أسبوع إلى الأسبوع الذى يليه . نتيجة لذلك قلت لنفسى يجب أن أهتم بالتلاميذ بشكلٍ أكثر . لقد كانوا هم أيضًا ليس لهم علاقة إلا بالسكرتير ، كانوا وكأنهم مدينون لى بتحية مختزلة فقط . ومع هذا كله لم تكن أحوالهم تبعث على اليأس أو تثبيط الهمم . كنت أرقبهم وهم يسيرون فى الشارع إلى جانب المدرسة، كنت أشاهدهم على غفلة منهم وهم على ناصية المدرسة أريد أن أتخيل أحاديثهم وكلماتهم وآلام قلوبهم وأفكارهم ، من خلال سباب ، أو توبيخ مضخم ، أو من خلال حركة منتقصة ، إلا أنهم كانوا يمرون عليّ دون تحية ، وكنت على يقين من أن وجوههم تصاب بالاحمرار لنصف ساعة بعدها . وكان قلبى يُعتصر من تلك الحالة التى أرى ملابسهم وأخذيتهم ، هكذا أصبحتُ أراقبهم ، أراقبهم وهم يأكلون ، وأراقبهم فى ذهابهم ومجيئهم . كان عدد قليل منهم هو الذى يأتى المدرسة بمفرده وحيداً . واضح أنهم كانوا ينتظرون بعضهم بعضاً فى الطريق أو يتقابلون فى بيوتهم . فلكى يقتربوا من قلعة المدرسة يجب عليهم أن يتضامنوا ويتزاملوا ويتعاونوا على ذلك . ثلاثة أو أربعة منهم فقط كانوا يأتون إلى المدرسة فى صحبة حرس خاص لكل منهم ، يتبع كل واحد منهم خادم أو خادمة تحمل عنه حقيبته المدرسية . إلا أن أحدا منهم لم يكن توصله سيارة إلى المدرسة . صحيح أن سبعة أو ثمانية منهم كانوا أبناء

لآباء لديهم سيارات ، كنت أعرف هذا . لكن الطريق المؤدى إلى المدرسة كان من الممكن أن يحطم السيارة يومًا ما .

بين عشرين أو ثلاثين تلميذًا كانوا يمضون وقت الغداء فى المدرسة كان اثنان منهم فقط هم الذين يحضران معهما أرزًا بالخضار . أخبرنى بذلك فراش المدرسة القديم ، أما باقى التلاميذ فكانوا يحضرون لغدائهم لحمًا مقددا أو جبن قريش أو عكاوى وما إلى ذلك من طعام . اثنان منهم أيضا كانا يأتيان بخبز جاف ، ليس فى منديل أو حقيبة، كانا أخوين أحدهما فى الصف الخامس والآخر فى الثالث . عند ما كانا يأتيان إلى المدرسة صباحاً ترى جيوبهما منتفخة ، حيث اقتسما رغيفاً ، وطوى كل واحد منهما نصفه فى جيبه ، وعند الظهر يخرجان من المدرسة كأنهما من هؤلاء الذين يأكلون غداءهم فى المنزل ، حتماً كانا يبحثان عن ناحية معزولة فى الصحراء يبتلعان فيها خبزهما ليعودا بعد ذلك . كنت أنا الوحيد الذى ألاحظ خروجهما من المدرسة وأرقبهما . ولكن حتى هؤلاء التلاميذ كان كل منهم يشترى يومياً بقران أو قرانين حلوى أو خردوات من الفراش ؛ سكّر نبات ، نظارة ، صور صغيرة ، قلم رصاص أو صمغ . من نفس الفراش القديم فى المدرسة الذى تمكنت من زيادة مرتبه خمس تومانات أخرى شهرياً كبدل حراسة المدرسة ، كنت قد ضمنته لدى أحد أصحاب المحلات فى المنطقة لكى يأخذ منه بضاعة بالأجل ويسدد ثمنها على أقساط ، أما الآن فقد أصبح بالنسبة لصاحب المحل من الأعيان . لكنه

كان بمجرد وصولى إلى المدرسة ، أو إذا أردت الذهاب يجرى نحوى ليأخذ عنى معطفى أو يعطينيه ، هذا على الرغم من أننى كنت أنبهه كل يوم لأننى لست ممن اعتادوا على ذلك ، لكنه كان يحاول أن يُظهِر حسن خدمته ، طوال المدة التى قضيتها مديراً لهذه المدرسة لم أخلع معطفى أو ألبسه فى غير حضوره ، ياله من عذاب كان . وكأن هناك من يعد عليك لقيماتك ! كان يقف منتصباً ، ينظر محدقاً فى عيونى فأجد نفسى مضطراً لأن أسأله عن أحواله وعن زوجته وابنه،وحتى أجلس ، وأنشر بساط أعمالى ، يأخذ فى تلاوة تقريره ؛ بالأمس تعارك اثنان من المدرسين أيضاً على مزهرية أو أن مأمور الحاكم العسكرى حضر إلى المدرسة ، أو أن المفتش قال للسكرتير كذا وكيت ، أو أن المدرسة الفلانية كان بها تفتيش ، أو أن معاون المنطقة التعليمية تم تغييره ، وما إلى ذلك من أباطيل . . . . من الواضح أن فراش المدرسة الجديد أيضاً كان له نصيب فيما يبلّغنى به من أخبار وموضوعات . بهذه الطريقة كان لدى يومياً ربع ساعة كاملة من الأعمال الشاقة وعند ما كنت أفكر فى هذا الأمر كنت أدرك أنه من المؤكد أن غيابى فى أوقات بعد الظهر له نصيبه أيضاً فى هذا الموضوع . حتى جاء اليوم الذى أبلغنى فيه ضمن تقاريره أن أحد تلاميذ الصف الرابع جاءه عصر أمس بقمعين من السكر وباعهما له ، وكأنه قد وضع فى يدى بداية خيط ، سألته : -

- « بكام ؟ »

- « أديته تومانين حضرتك . »

- « لأ . . . لأ . . . جيت على نفسك . ماسألتهوش جابهم منين ؟

- « هو أنا مغسّل وضامن جنة ، حضرتك . »

فى بداية أمرى معه لم يكن هكذا سليط اللسان ، وفى رده الجاهز هذا كان تأثير الفراش الجديد واضحاً ، وأخذنى التفكير فى أن الجميع فى هذه المدرسة قد وعوا الدرس فيما عداى أنا والأطفال . ثم سألته : -

- « ليه ما قلتش لحضرة السكرتير ؟ »

كنت أعلم أنه هو والفراش الجديد أيضًا يعتبران السكرتير غريمهما . وكثير من الأشياء التى تخصهما خافية عليه لايدرى بها ، وكلاهما مثل باقى موظفى الإدارة التعليمية يعلمان أن كل شئون المدرسة وأمورها فى يد السكرتير ، وحتمًا كانا يعتقدان أن بعض خيرات المدرسة كانت سوف تصلحهما فى حالة ما إذا كانت شئونها وأمورها منحصرة فى شخص . هكذا كان أمرهما يتردد بينى وبين السكرتير . وبينما ظل هو متردداً فى الرد على سؤالى، انفتح الباب ، ودخل الفراش الجديد ليقول :-

- « لوكان قالله حضرتك ، كان لازم يديله نصيبه طبعًا . »

قطّبت جبينى وقلت : -

- « أنـت برضه تانى بتـحشر نفـسك فى أمورغيرك ؟ مـاينفعش كده ، ياراجل ياكـبير إنت حد يخش على ناس كـدة ، من غير إحم ولا دستور ! »

بعدها سـألتهما عن اسم الـولد ، وألقيت فى روعهمـا أن الأمر ليس مهـمًا إلى هذه الدرجة ، وأرسـلتهمـا ليحضـرا لى الشاى . ثم أنهيت عملى بسرعة ، وذهبت إلى حـجرة مكتب السكرتير ، وسألته عن أحوال أمه ، وفهمت وأنا أقلب فى دوسيهات الأولاد وملفاتهم أن هذا الولد يعـيـد السنة ، وأن أباه تاجـرٌ فى السـوق . ثم عـدت إلى حجرتى ، وكـتـبت مـذكرة لأبيه بأن يحضر إلى المدرسة صباح بعد غد . وحضر والده فى الموعد ، يجب أن يكون الإنسان مديراً لمدرسة حـتى يدرك كـيف ينصـاع أوليـاء الأمـور بكل سـهـولة لأقل أوامـر وتوجيهات تصدر لهم من المدرسة . وتيقّنت من أنه إذا أرسل أحد فى طلبهم لأمر يخص شئون التسجيل فلن ينصاعوا بهذه السرعة .

كـان ولى الأمر هذا يبلغ من العـمر حـوالى ٤٥ عامـاً ، بياقـة قميص أُقفلت دون رباطة عنق ، ومعـطف هو للعباءة أقرب ، ويظهر عليه الخجل . قبل أن يجلس سألته : -

- هو أنت متجوز اتنين . . . حضرتك ؟ » .

كنت قد وضعت مع نفسى بعض الافتـراضات فيما يتعلق بابنه ، وقلت أحاول أن أثبتها معه بهذه الـطريقة ، فإذا صحّت افتراضاتى فلا

ضير ، وإذا لم تـصح فمن الممكن بسهولة أن أرجع عنهـا . لكن كان من الواضح أنه لم يتضرر كـثيراً من سؤالى . فمـدير المدرسة يستطيع فى النهاية أيضًا أن يسبر أغوار أى رجل أمامه حتى ولو إلى ذلك الحد الذى يفعله الحـلاق أو مزين فى حمـام ! من المحتم أنه اعتـقد أن ابنه فعل شيئًا . طلبت له الشاى ،وقدمت له سيجارة أشعلها على الفور ، ولخشـيتى من أنه لاقدر الله يعـترض على سؤالى ، أو أن يقول مـثلاً . . . وماذا يعنيك فى ذلك . . . وما إلى ذلك من اعتراضات . . . لم أمهله وتابعت سؤالى : -

- « إنت عاذرنى طبعـاً . لأن ابنك لابد أنه قعد سنتين فى صف واحد لهذه الأسباب . وإنت معايا طبعاً فى إنه لمـا تلميذ يجيب قمع سكر للمدرسة من بـيت أبوه ، فده ليه أسبابه طبـعاً . . . » كنت قد بدأت فى أن أوجّه له بعض النصائح الاجتماعية ، حيث قاطع حديثى قائلاً : -

- « أحـلف برأســك إنى بديله كل يوم أربع ريالات مـصـروف جيبه . . . حضرتك . يحرق أبوه ابن الحرام ده ».

هدأت من ثورته وطمأنته بأن الأمـر لايتعلق بالمصروف ، وأردت ألا يفقد أعصابه ، وأخذت منه وعداً بألا يفجر غضبه فى ابنه ، بعدها وجهت له نصيحـتى الاجتماعية بأن ابنه حـتماً لا يلقى الحنان والحب الكافى فى البيت ، وأنه لديه إحساس بالغربة وسط أهله ، ولايعتبر أن مال أبيـه هو ماله هو ، وإذا كان قـد جاء اليوم بقـمعٍ من السكر إلى

المدرسة ، فسوف يبيع سجادة البيت على ناحية الشارع فى العام القادم ، وأخذت أقرأ له أمثلة عديدة من الغيب . . . وما إلى ذلك من زخرف القول . . . . حتى تصبب خجلاً أمامى ، وأخذ يفصح عن مكنونات قلبه وآلامه بشأن زوجته الأولى الخبيثة ، كيف كانت كذا وكيت ، وأن ابنها هذا يعيش معها منذ أن طلقها ، وأن لديه عدد من الأولاد من زوجته الثانية ، وهذا الجحش يجب عليه الآن أن يجرى على رزقه ويعول نفسه ، وأن زوجته الثانية لها الحق ألا يعنيها أمره لأن لديها طفلين صغيرين . . ولما اتضحت الأمور وجهت له نصيحة أخرى . . . وأفقت فجأة على أننى أقوم بالاستدلال على كلامى ونصائحى بآيات من القرآن وأحاديث من السنة . عندئذ اكتفيت بذلك .

وبعد أن شرب شايه الثانى ، وقال ما قال من وعود ، وذهب ، أخذنى التفكير فى « لم لا يقوم علماء التربية والتعليم بمعالجة الأمور بمثل هذه الطريقة ! » .

- ١٢ -

عندما وصلتُ إلى المدرسة ذات صباح كان السكرتير لم يحضر بعد ، وهذا الوضع قليلاً ما كان يحدث . من الطبيعى أن يكون جرس الصباح لم يضرب بعد ، وقد مضى على موعده عشر دقائق ، والمدرسون فى حمى النقاش فى مكتبهم . فأنا نفسى عندما كنت مدرساً كنت مصاباً بنفس الداء ، ولكن بعد أن أصبحت مديراً أدركت مدى اللذة التى يجدها المدرسون فى أن يتأخروا عن الدخول إلى الفصل خمس دقائق حتى ولو دقيقتين أو دقيقة واحدة ، كانوا مستمسكين بهذا الأمر ، وكأنهم لم يعملوا فى مهنة التدريس إلا من أجل هذه الدقيقة أو الدقيقتين من التأخير . ولهم الحق فى ذلك ، فالإنسان عندما يكون مضطراً لأن يقوم بدور مهرج لايضحك الآخرين ولاحتى يتمتع هو نفسه بذلك ، فلا شك أنه يتحرر بذلك من أى تكليف . أمرت بأن يضربوا جرس الصباح ، وأن يتوجه التلاميذ إلى فصولهم ، واثنان من الفصول لم يكن لهما مدرس ، الصف الرابع الذى كان مدرسه ملفوفاً فى الجبس فى المستشفى وبديله الذى أرسل إلينا ، لم يستطع حتى الآن أن يوفق جدوله فى مدرسته مع الحصص الخاليه لدينا . والصف الثالث الذى كان مدرسه النحيل (العصابية) قد اختفى منذ شهر خوفاً من تعقب إدارة الحاكم العسكرى ، وكان يرسل بديلاً عنه إلا أنه لم يأت اليوم . أرسلت أحد تلامذة الصف

السادس إلى الصف الثالث ؛ ليقف عليهم ويملى عليهم قطعة إملاء ، وذهبت بنفسى إلى الصف الرابع . فعندما تكون مديراً لمدرسة يجب أن تدرب نفسك بين الحين والآخر ، حتى لا تنسى فن التدريس وحرفيته . أخذت أتفقد واجباتهم ، ثم بدأت فى قراءة درس اللغة الفارسية ،حيث دخل الفراش وأخبرنى أن سيدة تنتظرنى فى المكتب ، ظننت أنها حتماً ستكون تلك السيدة التى لا عمل لها ، والتى تأتى مرة كل أسبوع تمر فيها على المدرسة لتسأل عن حالة ابنها فى الدروس وأداء الواجبات . امرأة ذات وجه أبيض بعيون واسعة ، حزينة ، وشعر أسود فاحم السواد ، ووجه مستدير ، ولها قامة قصيرة ، ويبدو أن عمرها لايزيد عن ٢٥ سنة ، أما ابنها فكان من تلامذة الصف الثالث . أول يوم رأيتها فيه كانت تضع على رأسها منديلاً رقيقاً ، أزرق اللون ، وترتدى قميصاً برتقاليا ، فى أسلوب مهندم ، سعدت كثيراً بلقائى ،وخبرت بأدبى وأفضالى . ولم يكن قد وصل إلى خبرتها بعد أن مديرى المدارس إذا لم يكونوا عابسين متجهمين فهم على الأقل لاصبر لهم . كانت متبسطة للغاية لدرجة أنها تتحدث فى تبسط مع مدرس أو اثنين من مدرسى المدرسة ، وكما أخبرنى السكرتير فإنها كانت قد طلقت منذ عام ، وأن اعتيادها على الحضور إلى المدرسة والتردد عليها يعتبر مبعثاً للمشاكل ووجع الدماغ . فمدرسة تقع وسط الصحراء ، مليئة بالمدرسين العزاب الذين لا أحد معهم ، وامرأة جميلة . . . . بالتأكيد لايجوز ولايصح . بعدها كنت

أنبهـها إلى ذلك لكنها لم تكـن تكف عن عادتها هذه . حـيث كانت تتجه بعد لقائى إلى السكرتير وحجرة المدرسين ، وتنتظر حتى يضرب الجـرس ، ويتـجـمـع المدرسـون ، وتنطلق الكـلمـات والأحـاديث والضحـكات ، ثم تأخذ فى سـؤال مدرس الصف الثالـث عن أحوال ابنها الدراسية وواجباته المدرسية ، وبعد أن يضرب الجرس التالى تلقى التحية على الجمـيع وتذهب . لم تكن تتسبب فى أى نوع من المشاكل أو الإيذاء ، لكنى كنت دائماً أفكر فى أحوالها : كم هى مسكينة حتى تملأها القناعة بمجرد مدرس فى مدرسة ، وكيف تعيش حياة خالية من وجود رجل حتى تتشوق إلى هذه الدرجة لأن تستنشق هواءً يتنفس فيه رجال لاحول لهم ولاقوة مثل هؤلاء المدرسين ، حالها البائس هذا كان يقلقنى كثيراً ، بعيونها كـانت تبتلع أنفاس المدرسين ، كنت أرقبها فى هذا . وكأنهـا تأكل فى مالى ! هذا فضـلاً عن أنى لم أشأ أن تطاول يدها حرمة هيبتى مع هذا الجـسد الطفولى البض درن أن تعرف المرارة والحـسرة طريقـاً إليهـا ، ولم أكن أريد فى الأصل أن تكون المدرسـة مكاناً لتربية شخصيـات المدرسين من هذه الناحية . . . حتمًا هى نفس المرأة . . . أثناء هبوطى درجـات السلم كنت أرص الجمل وأنمقـها فى ذهنى حتى تـقطع رجلها عن المدرسـة ، فتحت البـاب فجـأة وألقيت بالتـحيـة . . . وياللعـجب ! لم تكن هى . كـانت فـتاة فى الحـادية والعشرين من عمرها ، ذات شفاه مكتنزة ، لفت شعرها خلف رأسها بمشقة ، وضعت كفهـا على فمها تحاول أن تفـهم . على أى حال لم

تكن قبيحة ، لكن وجهها كان ينطق بأنها مُدرسة . قلت لها إننى مدير المدرسة ، فسلمتنى قرار تعيينها فى يدى ؛ خريجة معهد إعداد المعلمين ، تم تعيينها حديثاً ، وأرسلوها إلينا لتعمل معلمة فى المدرسة ، أردت أن أقول « لعل مدير الإدارة التعليمية لايعلم أن المكان هنا يعج بالرجال » لكنى رأيت أنه لاضرورة لهذا ، وفكرت فى أن هذا فى حد ذاته يعد تنويعاً ، فهى على أى حال امرأة تستطيع أن تلطف من جو المدرسة الخشن ، الذى يطغى عليه جو الصبيان والذكور تماماً . رحبت بها ، وطلبت لها الشاى الذى لم تشربه ، ولما لم يكن بيننا كلام آخر ، أخذتها إلى الصفين الثالث والرابع ، واقترحت عليها أن تقبل أياً من الفصلين تميل إليه ، ودار الحديث حول ١٨ ساعة تدريس تنتظرها ، وعدنا إلى المكتب ، سألتنى هل يوجد لدينا معلمة أخرى غيرها . قلت :

– « للأسف . الطريق إلى مدرستنا لم يمهد بعد لكعوب أحذية السيدات » .

فضحكت ضحكة أحسست معها أنها تضحك بتكلف وصعوبة .
بعد ذلك أخذت تتحدث فى موضوعات شتّى ، ثم قالت فى النهاية :

– « آه كنت قد سمعت أنكم تتعاملون مع المدرسين هنا بأسلوب غاية فى اللطف » .

صوتها فيه من الجاذبية ما جعلنى أفكر « خسارة أنها سوف تفسد

هذا الصوت تحت السبورة السوداء . وقلت : -

- « لكن ليس إلى الحد الذى تفسد معه أمور المدرسة وشئونها وحتمًا وصلك أن زملاءك هم الذين جلسوا وقرروا بأنفسهم أن يقوموا بتدريس ١٨ ساعة فى الأسبوع . ولادخل لى فى الأمر » .

- « العفو حضرتك . . »

ولم أفهم ماذا أرادت أن تقول بعبارة « العفو حضرتك » هذه . ولكن كان من الواضح أن المشكلة لاتتعلق بساعات التدريس . فقررتُ فى الحال أن أتأكد من ذلك :

- « بالطبع أبلغوكِ أيضًا أن اثنين فقط من المدرسين لدينا هما المتزوجان ، فاحمر وجهها ولكى لاتفعل شيئا آخر ، نهضت واقفة وأخذت قرار تعيينها من فوق المكتب ، وتأزم الأمر فرأيت أنه يجب أن أنقذها من هذا الموقف ، سألتها عن الساعة ، كان موعد ضرب الجرس ، ناديت على الفراش لكى يضرب الجرس ، بعدها قلت لها إنه من الأفضل أن تتشاور مرة أخرى مع مدير المنطقة التعليمية ، ونحن على أى حال سوف يسعدنا أن نتشرف بزمالة سيدة فاضلة مثلها وفى أمان الله .

بمجرد أن خرجت من المكتب ، انطلق صوت الجرس ، وتدافع المدرسون وكأنهم فئران أُضرمت فيها النيران ، وأخذ كلُ منهم يتابعها ببصره حتى خرجت من بوابة المدرسة الحديدية الضخمة .

- ١٣ -

صباح اليوم التالى علمنا أن السكرتير كان يرعى شئون أمه المريضة التى تقرر لها أن تلازم الفراش لعمل جلسات كهربية على المواضع المصابة بالسرطان فى جسدها . كنت قد أشفقت على حاله منذ البداية وعملت ما بوسعى ، وطلبت من واحد أو اثنين من زملائى الذين تخرجوا فى كلية الطب أن يهتموا بأمره . أما الآن وقد وجدوا لها سريراً خالياً فى المستشفى فقد تضاعف خوفها ، وإذ لم تكن على استعداد لأن تذهب إلى المستشفى ، والسكرتير يريد منى أن أتدخل رسمياً فى الموضوع ، وأن أقنع أمه بما لى من لسان طيب ولغة حانية - على حد قوله - بأن تذهب إلى المستشفى . وما إلى ذلك . . .

لم يكن هناك بد من ذلك . فعيون السكرتير كان يبدو منها أنه لم ينم طوال ليلة الأمس . ومع هذا الوضع الذى سوف تضطرب فيه أمور المدرسة ، تركنا المدرسة للمدرسين وتوجهت أنا وهو فى طريقنا إليها .

باصات ، وتاكسيات ، وعربات حنطور ، وفى النهاية وصلنا منزلهم الذى لايزيد عن كونه حجرة مؤجّرة فى فناء بمساحة راحة اليد ، واتساع حوضه لايزيد عن مفحص قطاة . وقد جلست أمه بعيون غائرة ، وجهها كأنه ممسوح بالفحم ! لم يكن أسمر ، لكن لونه قد مال إلى السواد لدرجةٍ أخافتنى ، لم يكن بوجهٍ أصلاً ، لكنه كان

كأنه جـرح أسود كـبيـر انفتح فـيه مكان للعـينين والفم ، أخذ ابـنها يتحدث ويقدمنى لها « بداية الشباب وحمل المسئولية والمستشفيات التى لم تعد كمـا كانت من قبل » وما إلى ذلك من زخـرف القول وغروره وألقينا بعباءتها فوق رأسـها وتوكلنا . . . ومرة أخرى تاكسى ثم باص ووصلنا بعد ذلك إلى المسـتشفي ، وظللنا حتى الظهـر من حجرة إلى أخرى ، نعاين الأسـرة ورطوبة الجدران لنختار أقلـها رطوبة ، وملاءة السرير الأكـثر نظافة حـتى تمددت على السرير ، ومرة أخـرى قابلت اثنين أو ثلاثة من تلامـذتى القـدامى ، وأخذت فى توجـيه نصـائحى وتوصياتى ، وفى الواحدة بعد الظهر كنا قد انتهينا من هذا الأمر .

عندما حضرت إلى المدرسة غداة اليوم التالى كان السكرتير سعيداً كان واضح أنـه قد تخلص من عبء شئ مـا ، وأخبـرنى أن مدرس الصف الثالث قد تم القبض عليه ، بعد أن كان قد اختفى تماماً منذ ما يزيد عن الشهر بأيام قـلائل . كنا قد سلمنا استمارة اسـتكمال العمل الخاصة به إلى زميله الذى أرسله ليحل محله بشكل غير رسمى ؛ ولـم يتأثر راتبه بغـيابه ، واستمر الوضع على هذا الحال حـتى يصبح الخبر رسمياً ، وينشر فى الصحف ، وتعلم بذلك الإدارة التعليمية وتسحب اسمه من كشـوف المرتبات ، وعندما تأكد الخبر وأصـبح رسمياً ، لم يعـد يستطيع إرسـال بديله المناسب هذا (!) وأصـبحنا مـضطرين لأن نتصرف وفقاً للقواعد المعمول بها فى مثل هذه الحالة ، وكان هذا أسوأ ما فى الموضـوع . وفضلاً عن هذا كنت دائمـاً أفكر كيف سيـستطيع

شخص مـثله له هذه الأقدام الرقيـقة ، وهذا الجسد المرتعـد أن يخرج سالماً من تحت سلاسل هذه الزنازين السوداء ؟

« إذن لماذا لم تكلمه ؟ لماذا لم تفهمـه أن ما يفعله هذا لاجدوى من ورائه ؟ » ولكن أأنا الذى كنت مـقـصراً فى ذلك ؟ إنه حـتى لم يصـادفنى فى طريقى ولو مرة واحـدة حتى أسـأله عن أحوالـه . كان يجفل منى أصلاً ! فأنا الذى أحل المشاكل وأزلل الصعاب لهم جميعاً - حتى الفراشين - ماذا كـان يفرق هو معى ؟ ظللت على هذه الحالة ليومين أو ثلاثة أحس بالمسئولية وعدم الارتياح ، حتى قررت أن أذهب إليه وأزوره . وبـعـدها شغلنى الإحـساس بأن المدرسـة قد أصـبحت خاليـة ، وأن الفصول لا دروس فيـها فى أغلب الأوقات . فقـد كان بديل مدرس الصف الرابع مازال لم يحصل على صيـغة رسمية لعمله فى المدرسة . وأصبح لدينا فصـل آخر لامدرس له ، ومنذ بداية العام الدراسى حتى ذلك الوقت الـذى طالبنا فيه بهـذا المدرس البديل الذى تقرر أن يأتى ويسـد الفراغ فى الحـصص التى كنا قد ألحـقناها بجدول المدرسين الآخرين ، كـان هذا الإحساس هـو الذى دفعنى لأن أذهب مرة أخـرى لأقف أمام مدير المنطقـة التعليمـية . وعلمت منه أن تلك الفتاة قـد انتابها الخوف و « أوشكت أن تسبب لها حـالة من الإحباط بنصائحك الاجتـماعية هذه » هكذا حـدثنى مدير المنطقة التعليـمية . ورجّح أن يبحث الأمـر بنفسه . وبعـدها وعد بإنهاء الموضـوع غداً أو بعد غـد ، وأخيراً وبعـد أربعة أيام من السعى هـنا وهناك ، حصلت

للمدرسة على مدرسين آخرين ؛ أحدهما شاب رشتى، أبيض الوجه ، على خلق ، ذو شعر كثيف ينسدل خلف رأسه ، وهذا وضعناه فى الصف الرابع ، والآخر كان هو أيضاً من هؤلاء الشباب الذين يصففون شعرهم بالكريم ، ويغير رابطة عنقه كل يوم برسومات عجيبة وغريبة ، بينما كان ذلك الأخ عندنا ليس لديه سوى نفس رباطة العنق ، بطياتها الصفراء ، والهلب الضخم فى وسطها ، يشدها إلى عنقه كل يوم . أما هذا فكأنه قد جلس على كنز قارون ، أو أنه يمتلك مصنعاً لصناعة رباطات العنق، كل يوم رباطة تحوى مئات الرسومات ؛ نخلة عالية تحتها زخارف كثيرة ، تطل على شاطئ بحر يصب على صدر أخينا ، أو قلب أحمر قانى فى الوسط يعلوه سطر كتبت فوقه ملاحظات عدة ، وبمجرد أن يدخل من باب الحجرة تعبق رائحة عطره فضاء الغرفة ، يالها من مدرسة ملئت بالمتنعمين ! ليكن ما يكون .

وضعناه هو الآخر فى الصف الثالث ، لايجوز أن يكون الإناء أكثر سخونة عما بداخله ، ولما عاد للمدرسة نظامها المعتاد ، جلست وارتحت ، وأخذت أباشر أعمالى .

ذات يوم فى منتصف أحد الأيام حضر السكرتير إلى المكتب ليقول لى إنه أنعش ميزانية المدرسة . قلت :

- « مبارك . . . . أخذت كام ؟ »

- « لحد دلوقتى ولاحاجة . . . حضرتك ، المفروض ييجوا بكره الظهر هنا حضرتك ، ويبحثوا الأمور على الطبيعة . »

وفى الغد لم أذهب إلى المدرسة أصلاً . حتمًا كان يريدنى أن أكون معهم أيضًا ، وأن أباشر مساومات الحصول على ١٥ قران شهرياً بدل نظافة لكل فصل ، وأن أستغل وظيفتى كمدير للمدرسة حتى تصل إلينا ميزانية المدرسة ، وتكاليف المياه ، وباقى الأموال المتأخرة ... وفى هذا الغد كان ثلاثة أشخاص قد حضروا إلى المدرسة ؛ محاسب المنطقة التعليمية ومعه اثنان من مساعديه ، كانوا قد تناولوا غداءهم أيضاً على نفقة السكرتير ، وتساءلوا لماذا لايوجد فلان ، وأخذوا يراجعون الفواتير والحسابات واليوميات ، وقد قمت بالتوقيع على تقرير كل منهم ببعض الخطوط المعوجة والمتشابكة ، وقد اتفق معهم السكرتير على أن تقام لهم مأدبة احتفالية فخمة فى موعد تالى ، وذهبوا ... وأفهمنى السكرتير تلميحاً أنه يجب علىّ أن أكون موجوداً هذه المرة وعلى حد قوله فإنه مازالت هناك فرصة لأشكرهم على أنهم راعوا خاطرى ، ولم يطالبوا بحق سكوتهم ، وقنعوا بهذه المأدبة الاحتفالية فقط . الخلاصة أنه تقرر معهم أن يصرف على هذه الحفلة ثلثمائة تومان وبعض الكسور كمصروفات فى حضور مدير المدرسة ، كانت هذه هى المرة الأولى التى أجد فيها أهمية لوجودى ، هذه أيضاً ميزة أخرى فى أن تكون مديراً لمدرسة ! حقيقة أخذت شيئاً فشيئًا أدرك لغة قلوب المديرين وفكرهم . ٣٠٠ تومان من ميزانية الدولة معلقة على أن تذهب إلى الحفل الفلانى ، أولا تذهب ، ٣٠٠ تومان يستهلك فى سبيل كل تومانين منها ١٢ قران على الأقل ثمناً للورق والحبر والفواتير والدفاتر . فالإنسان عندما يقع فى مثل هذه

المواقف عليه فقط أن يدرك ، ماذا تعنيـه إدارة حكومية ، أو ماذا يعنى ديوان الوزارة .

طوال الأيام الثلاثة التى سبقت موعد الحفل لا أتذكـر أصلاً ماذا فـعلت . أذهبت إلى المدرسـة ، أم لم أذهب ؟ وإذا كنت فـعلاً قـد ذهبت فـلا أتذكـر ماذا فـعلت ، طوال هـذه الأيام كنت أفكر فى أن أذهب ، أو لا أذهب ؟ أذهب أم لا ؟ . . . « أخيراً - أتذهب أم لا ؟ أترى أيها الأحـمق ! هذا هو ما يسمى بالخـطوة الأولى . دائمًا نفس الموقف ، من نفس هذا المنـطلق . يختـلقون مـوقـفاً ، تمامًـا كـأنهم ينصبون شباكـهم ليصطادونك فيها ، ينحتون لك شخـصية وأهمية ، وينفـخـونك مثـل بالونة ويربطونك إلـى فـرع شـجـرة سنط مليـئـة بالأشـواك . والمـــوقف الذى يـدبرونـه لك لايدعك تفـهـم مـا هو الموضوع . مـثلما يحـدث الآن تماماً ، فـسكرتير مدرسـتك هو الذى يرعاه ، قطعًـا له حق فى أن يفعل ذلك من تحت يد مدير مثـلك فهو لايريد أن يقطـعـوه تحت هذه العـجـلات ، ولايريـد أيضـاً أن يظل سكرتيـراً كمـا هو . لابد من ترقيـة فى النهاية ، بدل منصـب ما ، منصب مدير وأعلى ثم أعلى . وأنت الآن تقف له عـثرة فى طريقه . والأسوأ من هـذا كله أنه يتكفل بمصاريف أمـه ، ولها مـصاريفـها ، فراتبه الذى يبلـغ ١٥٠ تومانًا لايستطيع معه حـتى أن يعطى ممرضات المستـشفى إكراميـة أو هبة . وأنت لا تستـطيع أن تأتى بسكرتيـر آخر غيـره . أتستطيع ؟ وإذا استطعـت فهل سيكون هو الآخـر سلمان أم

أباذر ؟ وحتى إذا تخيَّلت أن سلمان وأباذر وضعا مكان هؤلاء الأجلاف الذين لاتفكير لهم ، فهل سيكون هناك فرق ؟ لقد ولّى ذلك الزمان الذى كان المسئولون فيه لايأخذون من بيت المال حتى ولو زيتاً لمصابيح بيوتهم . وأنت نفسك إذا كنت لاتستطيع أن تكون أخرس وتلزم الصمت أكثر من هذا أو أن تفعل كما يفعل السكرتير ، فإما أن تتغاضى عن ذلك وتمضى فى حال سبيلك أو أن تخطو خطوتك الأولى ، تقيم الحفل ثم تأكل .... بعد ذلك خذ وهات . ثم الخطوة الثانية ، ثم الرابعة عشرو.... هه ثم مدير عام وتسقط فى الساحة وسط المعترك ! مجرد موظف يأكل فى أموال الحكومة . انتهز الفرصة ، وكل عيشك بسعر اليوم ، كن لَيِّن العريكة طيِّب اللسان وتماماً مثل موظف يتعلق بالروتين؛ بالتقاعد والمعاش ، ببدل الزواج ، ببدل الاغتراب ، وبدل الضيافة ... » يا اه ! كدت أن أختنق ، ومرة أخرى وضعت استقالتى فى جيبى ودون أن أتحدث فى شئ يتعلق بالموضوع ، لم أذهب فى يوم الحفل . بعدها رأيت أنه لايجوز ذلك على الإطلاق . قلت أذهب وأخبر مدير الإدارة التعليمية بما حدث وذهبت كان نفس المكتب لايزال داخل غرفته تماماً مثل منزل عروس تزوجت حديثاً ، ونفس منفضة السجائر اللامعة الفارغة ، لكنها كانت هذه المرة قد اعتادت على أعقاب سجائر مديرى المدارس ودخانهم،سلمت عليه وسألته عن الأحوال وجلست . لكن ماذا أقول له ؟ أأقول لأنى لم أرغب أن أشارك فى مأدبة الحفل فإنى أقدم استقالتى ؟ أليس فى هذا ما يثير الضحك ؟ أو أطرح الموضوع بشكل

أكثر وضوحاً وتفصيلاً ؟ وهل إذا فعلت هذا لن أصدمه هو فى نفسه ؟
. . . . رأيت أنه ليس لدى ما أقوله . أليس أسوأ من هذا كله أن أترك
مكانى بسبب ٣٠٠ تومان وأقدم استقالتى ؟ ثم ماذا يحدث ، أأروى
تلك القصة الخطيرة ، وفم الأسد ، وما إلى ذلك من أباطيل ؟ . . .
« . . . لأ . . فوق . . مرة ثانية فوق . لما يكون لازم يكسروا رقبتك
فيكون أكرم لك أن تدوسك عربية زى مدرس فصلك الرابع أحسن من
أنك تروح تحت عجل عربية كسح . . . » بعدها ضحكت من هذه
الأفكار و « السلام عليكم ، أنا جيت بس علشان أطمئن على
سيادتك » وما إلى ذلك من أكاذيب ، وألقيت باستقالتى فى أقرب
مجرور للمياه فى الشارع .

أما السكرتير فقد ظل أسبوعاً كاملاً كالكلب تماماً ، أخذته
العصبية ، يكثر من الصياح والضجيج ، والأمر والنهى ! وظهرت من
جديد عصى الضرب والعقاب ، والأيدى المتورمة فى الصباح الباكر ،
وربما لم تواتنى الجرأة على أن أتدخل . حتى أننى لم أذهب للسؤال
عن حالة أمه . أسبوع كامل كان فيه كل منا حكومة مستقلة فى
المدرسة . كنت أتسحّب فى هدوء وأغلق علىّ باب مكتبى ، وأمعن
النظر فى مسام جلدى ، وأذرع الغرفة مجيئاً وذهابًا حتى يخبو صوت
أنين الأطفال وعويلهم ، ياله من عذابٍ كان ! ولكن « لماذا أصلاً ؟
لماذا كنت تذهب ؟ » أنا نفسى لم أكن أعرف . عندما كنت أفكر فى
ذلك كنت أدرك : أنه فى أى خرابة من خرابات حياتك كنت تذهب

إليها تتعود عليها وتسقط فى هذا الاعتياد والابتذال شيئاً فشيئاً إلى درجة أنك حتى لاترغب فى أن تجأر بالصراخ . من المؤكد أن ذلك الشاب النحيل - أقصد مدرس الصف الثالث فى مدرستى - قد تعود هو الآخر بمثل هذه السهولة على تعذيب السجون ! فقد علمت بما يقع على رأسه من بلايا وعذاب .

طوال عشرة أيام كاملة ، وقلبى وقلوب الأطفال تخفق جميعها معاً بالخوف والوجل وبنفس القدر ، حتى وصلت الأمور فى النهاية . وانتهى الأمر إلى مائة وخمسين توماناً بدلاً من ٣٠٠ توماناً وكسور ، وكان السبب فى هذا أيضاً أن أخطاءً وقعت عند إعداد الفواتير واضطروا إلى إصلاحها وتصحيحها !

- ١٤ -

فضلاً عن تلك المرأة التى كانت تمر على المدرسة مرةً كل أسبوع تعوّد أن يحضر إلى المدرسة اثنان أو ثلاثة من أولياء الأمور ؛ أحدهم كان هذا الشرطى الذى ربط قدمى ابنه بالحزام وأوسعة ضرباً عليهما ! كان يأتى أحياناً على فترات متباعدة ، يصحب معه طرقات حذائه أثناء سيره ، لايخفض يده من التحية مهما أصررنا على ذلك ، فما بالك بأن يجلس . والثانى كان موظف فى البريد والبرق كان يأتى مرة كل عشرة أيام ، وهو ولّى أمر نفس ذلك التلميذ الشقى الذى كان يفادى يده بكل مهارة من تحت عصا السكرتير . يجلس نصف ساعة ، نتبادل أطراف الحديث وأوجاع القلوب ، أو نتحدث عن السياسة وعن مرتبات الدرجة الخامسة الإدارية التى كان يشغلها ، وعن إيجار المنزل الذى كان يدفعه شهرياً ١٤٠ توماناً . . . وكذلك أسطى نجار كان ابنه فى الصف الأول، وكان هو نفسه على قليل من الثقافة ويفاخر بذلك ، ويبدو أنه كان حاذقاً فى صنعته ، عندما يصافحنى يضغط بيديه الكبيرتين ومعصميه الرفيعين على يدى بشدة ، واقترب منى بهذه الطريقة ، كان يتمنى أن أوكل إليه أى عمل للمدرسة حتى « يثبت عملياً مدى حبه لى » كنت أخمّن أنه حتماً تملأه السعادة عندما يتجوّل فى المدرسة ، ويضطر لأن يتخيل « أن كل من يتجول فى المدرسة فهو متعلم حتماً » . كما كان يأتينا أيضاً رجل من هؤلاء الذين يعملون فى

تنظيف المجارى المـائية والآبار ، ذو هيكل ضخم ، طويل القامة ، له ابن فى الصف الثالث ، يأتينـا مرة كل أسبوع ، يخـالط الفراشين فى فناء المدرسة لعشر دقائق أو ربع الساعة ثم يذهب دون حس أو خبر . لاطلب له ، لم يكن يطلب شـيئًا منا ولا كلمـة ولاحديث . فى المرة الأولى التى جاء فيها إلى المدرسة . لا أعلم لمـاذا اعتلى سور المدرسة الضـخم هذا ، وأخذ ينهنه فـوقـه ، فقـد رأيته على هذا الحـال عند دخولى من باب المـدرسة . كان هذا فى نفس تلك الأيـام التى كانت تحاول فيـها المدرسة أن تتجـدد بالعطايا والهبات والتبـرّعات ، تخيّلت على البعد أنه عامل إدارة الكهرباء ، جاء لينصب عمود كهرباء ، لكن عندما وصل إلى سمعى صراخه وعويله ، أسرعت الخطى إليه . وكان الأطفال قد تدافعوا للخروج من الفصول ، وأخذ السكرتير واثنان من المدرسين يتحركون بسرعة ليصلوا إلى السور ويمسكون بقدميه لإنزاله . حتمًـا كانوا يتخيلون أنه لايجب ترك شـخص مهما كان ليـعتلى سور قلعـة المدرسة ويهـرب بهذه السـهـولة ، طوال هذا الموقف كنت أفكر كيف استطاع أن يعتلى سـور بمثل هذا الارتفاع ؟ ولكن بعد أن علمت بمهنته أدركت أنه لاعجب فى ذلك .

ولكن كان عـجبى أشد من ضـخامة جـسمه ، إذ كـيف يستطيع شخص بمثـل هذه الضخامـة أن يدلف إلى داخل كوة بئـر ، أو ينثنى داخل فتـحة قناة للمـياه ، فهـيكله هذا لايصلح إلا لاعتـلاء الأسوار العاليـة .وكان سبب صـياحه وصراخـه هو أننا لم ندرج اسم ابنه فى

القائمة التى أرسلناها للمجلس المحلى للحصول على أحذية وملابس وما إلى ذلك . . . عندما وصلت إليه ، رمقته بنظرة ، ثم أوعزت إلى السكرتير والمدرسين بأن يتركوه ، ودخل الأطفال إلى فصولهم ثم قلت له دون أن أوجه أنظارى إليه : -

- « تسلم يا أسطى . »

وأضفت وأنا أتجه ناحية مكتبى موجهاً كلامى إلى السكرتير والمدرسين :

- « لازم انتوا ما ردتوش رد شافى على الراجل الغلبان ده ، علشان يطلع كده فوق السور ، لأن الواحد لما يكون عنده مشكلة مع المدرسة يروح مكتب المدير ، مش يطلع فوق السور ! . »

وسمعت خلفى صوت ارتطام ، وبمجرد أن دخلتُ من باب المكتب دخل ورائى هو والسكرتير معاً . وبدلاً من ذلك الجسم الضخم الذى كان فوق السور رأيت رجلاً محنيًا ، انحنى قوامه فى ثلاثة مواضع . كان من الواضح أنه لم يسبق له حتى الآن أن تحدث مع مدير مدرسة قلت له : اجلس. وأحسست أنه قد تكور فوق الكرسى ، وبدلاً من أن ينطق بكلمة ، أو يرد بإجابة ، انفجر فى بكاء مفاجىء .

وياللعجب ! إهىء . . . إهىء وبصوتٍ عالٍ . لم أكن أظن مطلقاً أن صوت البكاء من الممكن أن يخرج من مثل هذا الجسم الضخم ! فأُسقط فى يدى . ماذا أفعل له الآن ؟ ماذا فعلت أنا له

أصلاً حتى يبكى أمامى هكذا ؟ هل أهدىء من روعه ؟ كيف . . . ولماذا ؟ كان هذا التفكير يشغلنى حيث خرجت من الغرفة ، وناديت الفراش الجديد ليحضرله كوب ماء ، وعندما يهدأ ويعود لحالته الطبيعية يحضره إلىّ . ولكن لم يصلنى عنه أى خبر بعد ذلك ، لا فى نفس هذا اليوم ، ولا فى أى يوم آخر . كان يمر على المدرسة مرة كل أسبوع ، يختلط بالفراشين فى فناء المدرسة أو فى الردهة لعشر دقائق أو ربع الساعة ، ثم يذهب لحال سبيله . فى نفس ذلك اليوم رأيته من خلف زجاج مكتبى ، وهو يخرج من باب المدرسة ، يجرجر أذيال الخيبة . وجاءنى الفراش الجديد ليقول : -

- « أيوه يا سيدى . طلبوا من ابنه خمسة تومانات ليضعوا اسمه فى الكشف بتاع المجلس المحلى علشان صرف الأحذية والملابس . »
كان واضحاً أنه أراد أن يشى بالسكرتير مرة أخرى ، فصرفت الفراش الجديد ، واستدعيت السكرتير . واتضح أن ذلك الرجل كان يريد أن يضرب السكرتير ، هكذا وبلا مقدمات ، لكن السكرتير استنجد بالمدرسين والتلاميذ ، واضطر« أخينا »لأن يقفز فوق السور من الخوف .

وفى شهر فبراير وذات يوم تساقط فيه الجليد ، تعرفت على واحد آخر من أولياء الأمور ، كان الفراشان والسكرتير قد جاءنى كل واحد منهم بعد الآخر ليخبرنى بحضوره ، وهم يسرعون الخطى فوق درجات السلم . كان من الواضح أنهم اشتموا رائحة شىء ما ، كان

رجلاً قصيراً للغاية ، تبدو عليه مظاهر الفرنجة ، وسيم ، مهندم ، ملابسه مكوية ، كأنه لم يجلس عليها ، تحدث عن دراساته وأسفاره إلى بلاد الفرنجة ، ومن كثرة الذهب فى أصابعه ، وحول معصمه كان يبدو وكأنه قد فتح محلاً للصاغة ، أما معطفه الذى كان يرتديه فقد كان أقصر من سترتى ، كان يريد أن نوافق على نقل ابنه من مدرسة أخرى إلى مدرستنا وفى هذا الوقت من السنة . كان ابنه من أولئك الأطفال الذين يأكلون المربى ويشربون اللبن فى إفطارهم مرغمين ، أصفر الوجه ، ذا عيون لا تركيز فيها ، كان فى الصف الثانى ولايزال معه مادتان رسب فيهما من الفصل الدراسى الأول من تلك المواد الأربعة التى كان يدرسها تلاميذ الصف الثانى فى الفصل الدراسى الأول . قال إن لديه فى حديقة فيلته الصيفية التى تقع بالقرب من المدرسة بستانى له ابن يدرس فى مدرستنا ، متقدم فى دراسته و « واضح أن التلاميذ فى هذه المدرسة يحرزون تقدمًا فى دروسهم تحت ظل مدير جيد ، وأن هذه المدرسة تختلف عن المدارس الأخرى فرق ما بين السماء والأرض » وما إلى ذلك من زخرف القول ، وأنه حضر هو وأسرته ليقيموا فى فيلتهم الصيفية فى هذا البرد والجليد من أجل هذا الطفل . أخذت أفكر فى أن « أهالى المنطقة المحترمين قد تفتّحت عقولهم » بعدها طمأنته بأنه لاداعى لكل هذه المجاملات ، وأن المدرسة تفتخر بأن تجمع بين تلاميذها أبناء الفلاحين مع أبناء أصحاب الأرض أيضاً ، وأحسست أنه لم يرتح لعبارتى الأخيرة هذه ، ووقفت

وناديت السكرتير ، وسلّمت يده ويد ابنه ليد السكرتير وقلت له : فى أمان الله .... بعـدها بنصف ساعـة عاد السكرتير ليـقول لى : إن «أخينا» قام بـتأجير منزل فى المدينة لمدرسـة ثانوية بمبلغ ٣٢٠٠ توماناً شهرياً ، وأنه طلب بإلحاح أن يذهب مدرس خصوصى لابنه فى المنزل حتى أنه لم يتورع عن أن يطلب المدير نفسه ليتـقبل تحمل مسئولية ابنه ... ومـا إلى ذلك من عـفن الفكر والقـول . وبهـذا الكم من هذه الأخبار والأقـاويل التى نقلها عنه فراشنا الجديد ، أحـسست أن لعاب السكرتير قد سال ، فقلت له : إنه حـتماً يريد أن يتأكد أن ابنه سوف يتم قـبوله ، وألقـيت فى روعه أنه من الأفـضل أن يذهب هو ، وأن يكون هذا الأمر بعيداً عن سمع المدرسين،حتى لا نسمع اعتراضاتهم ، ولا نحتاج فى آخر السنة لأن نضرب أخـماساً فى أسداس لكى ينجح هذا التلميـذ . وفى عصـر نفس هذا اليوم ذهب السكرتيـر إليه واتفق معه على أن يعطى لابنه درساً عصـر كل يوم بـ ـ ١٥٠ توماناً شهرياً ، وأصبح من المؤكـد والمسلم به أن المدرسة لن تتـعطل أبداً بعد ذلك فى أوقات العصر .

دالت الدنيـا على هوى السكرتيـر . أصـبح يحـصل على دخل إضـافى يوازى تمامـاً راتبه الحكومى ، وهذا مـن زبون واحد فـقط . صـباح كل يوم كـانت عيـونه تبرق بـنفس البريق الذى أظن أنه كـان انعكاسًـا لجمـيع أنواع الزينة والرياش والأثاث فى منزل أخـينا هذا . أيضا تحسنت حـالة أمه ؛ فقد سمـحوا لها بالخروج من المسـتشفى .

كـذلك فكر هو فى الزواج ، وقـال : إن أمـه بمجـرد خروجـهـا من المستشـفى أخذت تبحث له عن عروس هنا وهنـاك ، أصبح وكأنه بدأ فى تشغـيل عقله من جديد وإعمال فكره ، كل يـوم كان لديه فكرة جديدة ، لنفسـه أو للمدرسة ، أو حتى لى أنا شخـصياً . وذات يوم جاءنى لـيقول : لمـاذا لا يـكون لدينا مجلس آباء ؟ جلس وحـسبـها فوجد أن خمسين أو ستين من أولياء الأمور من الأغنياء من عينة أخينا هذا الذى يعطى لابنه درساً خصوصيـاً ، كما أنه كان قد حصل منهم على وعـود صريحة . فنبـهتـه لأن يتحـرز لأقاويل الإداريين وحـسد زمـلائه ، وأن يفعل بعـد ذلك ما يـحلو له . أعطانى كارت الدعـوة وكتـبته بكل فخـامة وبما يتناسب من ألقاب ، وأخـذه هو إلى المنطقة التعليمية ، فكتبـوه على الآلة الكاتبة ، وأرسلها إلى أولياء الأمور عن طريق التلاميذ أنفسهم .

بدأ الاجتماع رسمياً بحـضور عشرين ونيف من أولياء الأمور من مجموع ٧٠ دعوة وجهت لحضـور هذا الاجتماع ، لذلك تملكته حالة من الضيق الشـديد ، وأخذ يقول « ألـهذه الدرجة نحن شـعب يتسم بالإهمال ، ولايفكر بجـدية » فطمأنته بأن الدعـوة حتمًا كـانت تفوح منها رائحة التبرع .

كـان الجمـيل فى هذا الأمـر أن شـرطى النقطة قـد حضـر هذا الاجتمـاع ، كان يدق أقدامه للجمـيع ، وهو واقف إلى جانب الباب ليرفع مع كل دقة يده بالتحية العسكرية ، وجلس المدرسون إلى جانب

بعضهم بعضًا ، وأخذوا يتحدثون فى لغط مسموع ، اكتملت أبهة المجلس ، حيث كان السكرتير قد جهّز الشاى والحلوى واستأجر مصباحًا غازى ، ووضع على كتفيه معطف المطر وامتلأت القاعة لأول مرة فى عمرها بأصوات الحضور ؛ أصوات مختلفة وأوامر بالذهاب والمجيئ . اخترنا لرئاسة المجلس ضابطاً برتبة عقيد ، واخترنا تلك المرأة التى كانت تحضر إلى المدرسة مرة كل أسبوع لتكون نائباً للرئيس ، من المحتّم أن سيادة العقيد قد سعد قلبه بذلك ، ونزولاً على رغبة السيد العقيد وإصراره تم اختيار امرأة مسّنة إلى حد ما لتكون أميناً للصندوق ، واختير السكرتير ليكون أمين سر المجلس ، واختير بعض منهم ليكونوا أعضاء المجلس ، أو أصحاب مناصب أخرى فيه . وياله من عالم عندما تكون مجرد مدير لمدرسة وتجلس على طرف الساحة لتوزع المناصب ! بأى قلب تلعب وبأى يد ! سعد الجميع بهذا الوضع أيما سعادة ، لقد نحيّت نفسى جانباً ، كان يكفينى ما على كاهلى من أعباء فى إدارة المدرسة . أما أخينا هذا الذى كان السكرتير يعطى لابنه درساً خصوصيًا فهو لم يحضر أصلاً ، إلا أنه أرسل مظروفًا مغلقاً باسم المدير ، فتحناه أثناء انعقاد المجلس .اعتذار عن أنه لم يستطع « أن ينال من فيوضات مجلسنا » ومعه فى الظرف تبرع « بسيط » ١٥٠ توماناً « الشرارة الأولى » ، وضعت المبلغ فوق منضدة أمينة الصندوق حتى تسجله وتحفظه ، وأخذت نائبة الرئيس الوسيمة ، المهندمة ، المتعطرة فى تقديم الحلوى للحضور ،والمدرسون تحمر وجوههم مع كل قطعة يلتقطونها ، وأخذ الفراشان يقدمان

للحضور أكواب الشاى . خلال هذه المعمعة وأثناءها لم يكن أحد يفكر فى مدير المدرسة . كنت أحس وقتها أننى أصبحت أفكر فى عواقب الأمور وأحسب للأمور حسابها ، وكنت مسروراً لأننى اكتفيت بالجلوس خارج الساحة ، ونحيت نفسى جانباً ، كنت غارقًا فى هذا التفكير ، حتى رأيت فجأة أنه قد تجمع فوق المنضدة ٣٠٠ أو ٤٠٠ توماناً نقداً و ٨٠٠ تومانًا أخرى بإصالات أوشيكات لم يكن مع تلك المرأة التى أصبحت أمينة للصندوق حقيبة تحمل فيها هذه الأموال ، فاضطر الحاضرون للموافقة على أن تبقى هذه الأموال فى عهدة السكرتير و « لافرق بيننا وبينك وعبارات الثقة والاطمئنان » وتم كتابة محضر الجلسة ، وتوالت التوقيعات فى آخره ، ووقعت أنا على توقيعات الجميع ، وانتهى المجلس فى خيرٍ وسلامة .

وفهمت فى اليوم التالى أن السكرتير من سعادته قام فى نفس الليلة بالاحتفال بالمدرسين .

بعدها كان أول عمل قمت به أننى أرسلت محضر جلسة تلك الليلة إلى الإدارة التعليمية ، والإدارة العامة لشئون العاملين « والإدارة العامة للشئون الاجتماعية فى الوزارة » ، ولأماكن أخرى عديدة ، تماماً مثلما يفعل أى مدير مدرسة ملتزم . وفيما بعد استدعينا ذلك الأسطى النجار وطلبنا منه أن يقوم بعمل أبواب لدورات المياه ، وبصعوبة أعطاه السكرتير الأموال اللازمة لذلك . بعدها قمنا بتشجير الممرات المحيطة بالمدرسة ، وغيّرنا شبكة كرة الطائرة ، واشترينا كرات

جـديدة ، وتوالت التمـارين عـصر كل يوم ؛ فـى استـعداد لخـوض مباريات مع المدارس الأخـرى ، خلال المعمعة بدأ يظهر مفـتش التربية الرياضـية والبدنيـة أيضاً ، يوم مـرور على المدرسة ، وروح وتـعالى ليحدث جلبة وضجيجًا وزحاماً لا قبل لى بالحديث عنه .

وفى صبـيحة أحد الأيام ، سـمعت بمجرد وصـولى إلى المدرسة أصواتاً تأتى من القاعة ؛ طراق ، طيق ، طراق ، صوت قطع حديدية ومعـها أصـوات أنفاس الأطفـال المتلاحـقة ، نعم كـان صوت بارات الحديد فقد ذهب السكرتير مـن تلقاء نفسه ودفع ٢٠٠ ، ٣٠٠ تومان واشتـرى الحديد وأخـذ الأطفال النحـاف ، بعظامهم البـارزة ينحنون برقابهم تحت ثقل تلك الأوزان الحديدية ، لتشتعل الوجوه بحمرة الدم ويسيل العـرق ، وطيق ، طراق ، ماذا أقـول ؟ هل أكيل له السـباب لأنه فعل شيئاً دون إذن منى ؟ ألست أنا الذى فعلت هذا ؟ أليس هذا من بيت المـال ؟ هدأت من خاطرى . فى البداية كانت مسألة الأحذية والملابس . وهاهى مـسألة مـجلس الأباء ! ألم تكن أنت من البـداية بمنأى عن معرفة ماذا يدفع وماذا يأخذ ؟ لقد شاهدت فقط المبلغ الذى أعطاه للنجار . لكننى فى الحـقيقة كنت أريح نفسى . فـأولياء الأمور أنفسـهم كانوا على علم ؛ لقـد دفعوا أمـوالاً وحتمـاً كانوا على علم بالظروف التى يعيشها المدرسون . المهم فى ذلك أن القاعة الرياضية فى المدرسة بدأت تأخذ رونـقها وتزاول نشاطها ، وأصـبح الأطفال لديهم كرة عـلى الأقـل يجرون وراءها ، وبارات أثقـال يعرقـون تحت وطأة

ثقلها ، ليسحبوا أنفاساً عميقة حتى ينمو قفصهم الصدرى ، ليستطيعوا أن يهضمـوا خبزهم وجبنهم أو طعامهم المطبـوخ بشكلٍ أفضل ، كان السكرتير أيضًا فى حالة رضـا والمدرسون كذلك ، ولأنه لم يكن هناك أى أثرٍ للحسـد ، ولم يحدث أن صدرت كلمة أو أقاويـل بهذا الشأن فـما كـان علىٍّ إلا أن أوصى السكرتيـر بأن يضع الفـراشين فى فكره أيضًا .

- ١٥ -

رويدًا . . . رويداً أخذنا نعد أنفسنا لامتحانات الفصل الدراسى الثانى . لم يكن لى أىّ تدخل فى امتحانات الفصل الدراسى الأول ؛ لأنى كنت فى بداية عملى بالمدرسة، وكنت أخشى أن تتفاقم الأمور ، أما الآن فقد أصبح الوضع يحتاج لأن أقوم برقابتى الفعلية ، وأرى كيف يجعلون الأطفال يُخرجون عرقهم ؟ هذا بالإضافة إلى أننا يجب أن نسلّم للتلاميذ شهاداتهم مع عطلة أيام العيد ، فلكى يدخلوا إلى السنة الجديدة فهم يحتاجون حتماً إلى شهادة السنة السابقة ، أو على الأقل لشهادة الفصل الدراسى الثانى من عامهم الدراسى الذى يطول لثلاثة فصول دراسية . كان هذا حيث استدعيت المدرسين ذات يوم فى أواخر شهر فبراير وأثناء الجلسة التى عقدناها رويت لهم دون مقدمات حكاية عن أحد زملائى السابقين ؛ فقد كان كلما اضطر لأن يمنح الدرجة النهائية فى تصحيحه يصاب بالحمى ليومين بعدها ، كان مدرسًا للتاريخ ، يقوم بالتدريس فى الصفوف من الأول إلى الثالث الثانوى ، شاباً تخرّج فى المعهد العالى للمعلمين ، لكن ذلك كله لم يكن ليغير شيئاً فى حالته وكنا إذا رأيناه فى صبيحة أحد الأيام وحالته ليست على ما يرام ، كنا نفهم أنه اضطر حتماً لأن يعطى الدرجة النهائية فى تصحيحه بالأمس . وطبعاً ضحك المدرسون . وتشجعت مضطراً ورويت حكاية ذلك الشيخ الذى كان يعلّمنا فى طفولتنا العلوم

الشرعية ، كان يكتب نمر التلاميذ من تحت عباءته ، ويده ترتعش تحت العباءة إلى درجة تتـحرك معها هذه العباءة ، يسـتغرق فى هذا العمل عشـر دقائق كاملـة حتى ينهيـه . ماذا كان يعطـى ؟ أفضل التلامـيذ وأحسنهم كان يأخذ ١٢ ! بالضبط كـأنه يلد الدرجة . وطبعاً ضحكوا على هذه أيضاً ، حيث تنبهت هذه المرة فتركت المزاح جانباً ، وأشرت عليهم أنه من الأفضل أن نتـشاور فى مسألة وضع أسئلة الامـتحانات و«أنا مستعد لأى خدمة » وما إلى ذلك من عبارات التشجيع ، بعدها تبادلنا وجهات النظر حول تلاميذ الصف السادس ، وحول العدد الذى يمكننا أن نقدمـه منهم إلى الامتحـان النهائى ، ومـاذا نفعل لكى تقل نسبـــة الرسـوب ، ومـــا إلى ذلك من أمـور أخـــرى . . . وبدأت الامتـحانات مع بداية السبت التـالى ، الذى كان أول سبت من شـهر مارس .

كنا نراجع الأسـئلة بثـلاثة مـراجـعين ، أنا ومـدرس كل صف والسكرتير ؛ حـتى لايحدث لاقدر الله أى ظلم أو إهمـال ، وبعدها نضرب الجـرس ، ويتجه الجمـيع فى طابور إلى القاعة ؛ تلك القـاعة التى كُـتب على بابها منـذ أن أصبح لدينا بارات رفع الأثقـال « قاعـة التربيـة البدنية » حيث كثـرت على حوائطها صور غـلاظ الرقاب من أبطال رفع الأثقـال ، وقد وُضـعت فى ركن منها منضـدتان جمـعت عليهمـا أعمال التلاميذ اليـدوية ، وعلى الأرض عند قوائم المنضدتين ألقيت أوزان الحديد الثقيلة كأنها خرتيت التصق بالأرضية ، أما أعمال

التلاميذ اليدوية فكانت تتنوع بين صناديق صغيرة من الورق المقوى كُسيت بورق ملون ، ومناضد وكراسى خشبية صغيرة لايتناسب صغرها حتى لدمى العرائس الصغيرة ، وبراويز من خشب الأبلكاش مطعّمة ، ونموذج صغير لبرج إيفل لايزيد ارتفاعه عن شبرين ونصف وقمته تشبه قمة مأذنة مسجد الشاه ، وخريطة مجسمة لإيران حفرت عليها أماكن المدن بالمثقاب . . . ما أكثر أسلحة منشار الأركيت التى استهلكت لصنع هذه الخردة ! وجرحت من جرائها الأيدى مرات عديدة ، وما أكثر الأموال التى خرجت فى سبيل ذلك من جيوب الآباء ، وما سبقها من عراك فى البيوت . . . . . . لم كل هذا ؟ لكى يحصل التلاميذ على درجات أكثر فى الأعمال اليدوية والمهارات . أيامنا هذه لم يعد فيها مجال للأعمال المكتبية . حتى وزراء التعليم أنفسهم أصبحوا يقرون الآن بأن هذه الأسماء والتراكيب والسنن والمحفوظات لن تأخذ مكاناً من عمر مستقبل التلاميذ الملئ بالبطالة ، لذلك يجب حتماً على كل طفل أن يتعلّم حرفة فى المدرسة لكى لايموت أحد من الجوع إذا لم يجد له مكتباً خالياً أو عملاً فى وظيفة حكومية . إذن ليس هناك ما هو أفضل من الأعمال اليدوية والمهارات ، إذن لتحيا كارتونات الأحذية والحلويات ! وياليت كل طفلٍ لديه أب يعود كل ليلة إلى المنزل ومعه لفة،وليحيا ورق الكلك ، وورق السوليفان الملون ! ولن يزيد الأمر على ذلك . أو يكون فى نفس الحدود ، ليقوموا بإدخال منشار الأركيت سِنّة سنة مثل الدبوس

ليصنعوا منها تواليت أفرنجى أو مواسـير مياه ، ومنزل أوربى بجمالون وآلاف القطع الأخرى . . . . . واحد فقط من كل ألف منهم هو الذى يستطيع أن يفتح محلاً لصناعة البراويز وتطعيم الأخشاب ، أو يستطيع أن يحول منشـاره الأركـيت إلى منشـار حدادى ومسامـير بريمة وخرز ونجف فرنسى ، إذن ليرحم الله أبا هذه المدرسة ، على ترويجها بهذه الأعمـال اليدوية لبـضاعة أصـحاب الأجزاخـانات فى الحى ، وعلى درجات السلوك والمواظبـة فيهـا ، وعلى الاتجاهات الأصليـة والحدود والبحيرات ، وصادرات الحبشة ! وعلى التربية البدنية وواجبات تحسين الخطوط ! فقديماً عندما كنا لانزال فى مرحلة الدراسـة كنا نعتبر التربية الرياضية والتدريب على تحسين الخطوط بمثـابة ملاط وزخرفة لدرجات المواد الأخرى . ويالحسن حظ الـتلاميذ هذه الأيام فبـالإضافة إلى كل ذلك لديهم أعمال يدوية أيضاً ، ولديهم أيضاً معلومات بيئية ومدنية ، وأفضل من هذا كله لديهم درجات على السلوك والانضـباط ، يضعها لهم مديـرو المدارس ، ولاتحتاج إلى درس خـصوصى ولا إلى سـهرِ الليالى . فقط يجب أن تتعلم كيف تمشى ورأسك إلى الأرض و « صمٌ بكمٌ » و « مالك مـربى ؟ من عند ربى » و « القناعـة كنز الرجال ».
أليس هذا كله تقدّم فى حد ذاته ؟ تقدم للتلاميذ ، وللمدرسة أيضًا ، وأيضًا بشكلٍ خـاص لمديرى المدارس ، خطوة أخرى فى سبيل تحـقيق استقـلالية المديرين ! فرغم هذه الأشياء التى كنت أواجـهها كنت على يقين من أننى أقـوم بعملٍ مهم لـلغاية ، بالضبط مـثل أى وزير ، بل

حتى أفضل من أى وزير ! فلم أكن أتخيّل أصلاً أن أجلس هكذا لأعطى أبناء الناس درجات بمثل هذه السهولة ، درجات السلوك والانضباط ، وهى درجة مثل باقى الدرجات الأخرى . مثل درجات المواد المهمة كالتاريخ وعلوم الشريعة والحساب ! وتتوقّف فقط على ملاحظة الأطفال خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، فالطفل الفلانى كان يسبّب ضجة خارج باب مكتبك ، أو كان يمشى فى هدوء ، أو هل وضع وجهه إلى الأرض أم لا ، عندما كان يحدثه السكرتير بالأمس ، إنك تترك الأمور على أعنّتها للمدرسين ، يدخلون إلى الفصول ويستخدمون قوتهم وقهرهم ليجعلوا عقول أولاد الناس تمتص معلوماتهم ، وعندما يأتى الامتحان يكون معهم رأس حمار مثلك ، فأنت المدير ، وتفعل تماماً مثلما يفعل أى وزير ، تغلق على نفسك باب مكتبك ، وتصبغ شخصية كل تلميذ بكل ما فيها من ذوق وفهم وشقاوة وغباء فى شكل درجة باسم درجة السلوك تضعها طليقةً فوق ورقة ، ثم ترسل الشهادة إلى والديه ليقرآها بكل شغفٍ ولهفة ، ويفتخرا بها أمام الآخرين لأن لديهم طفل مؤدب ، يمشى ووجهه إلى الأرض ، ويحصل دائمًا على الدرجة النهائية فى السلوك ! ياللعجب . . . لديك عمل مهم ، أليس الأمر كذلك ؟

قبل كل امتحان كنا نعقده فى قاعة التربية البدنية ، ؛كنت أقوم بنفسى بإلقاء خطبة أمام الأطفال أقول فيها : - إن الخوف من المدرس أو الامتحان لا أساس له ، ويجب أن تتحلوا بالثقة بالنفس ، وأن

المدرس لايحمل لكم إلا كل الحب والحنان ، وما إلى ذلك من زخرف القول . . . ولكن هل كلمة واحدة من كل هذا كانت تدخل آذان التلاميذ ؟ بمجرد أن يدخلوا من الباب ، كانوا يقومون بهجوم على أركان القاعة لايمكن وصفه ! يبحثون عن أماكن بعيدة عن المراقبة . وكأنهم يبحثون عن ملجأ أو مخبأ أو ملاذ ، خائفين مرتعشين ، هكذا فجأة حتى أحسست كأنهم يتلذذون بهذا الخوف ، يشجعون أنفسهم بالخوف ، أما أولئك الذين كانوا يجلسون على أول كرسى يقابلهم وبأيديهم يضعون كتبهم جانباً فقد كانوا نادرين للغاية . وحتى إن لم تكن مدرساً أو مديراً كان يمكنك بسهولة أن تخمن من منهم قد اتفق مع زميله ،ومن منهم سوف يجلس إلى جانب زميله الذى اتفق معه . كانوا يستمدون من بعضهم العون ، يحتمون ببعضم بعضاً ؛ يختفون فى ظلال بعضهم البعض ، بعدها بدقيقة يبعدون دفاترهم وكتبهم ، وينحونها جانباً فربما أمكنهم أن يواجهوا الامتحان هكذا بمفردهم - كل واحد بمفرده - ؟ حاولت مرة أو مرتين أن أقف على يد أحدهم وهو يكتب ؛ لأرى مايكتبة . لكن كان كل منهم إذا فعلتَ هذا معه يصيبه الاضطراب ، وترتعش يده لدرجة يعجز معها عن الكتابة ، لكن أى خط هذا ؟ ما هذه الخطوط : - صحيح أن جميع الإدارات تحتاج إلى آلات كاتبة - لا أعلم ، ولكن ماذا كان يفعل معهم مدرس الخط ؟ وإذا لم يكن الخطأ عليه فى ذلك فمن الممكن أن نلقى باللائمة فى ذلك على تلك الأقلام الرخيصة التى لايزيد ثمنها عن تومان واحد

.... يتطاولون بأعناقهم حتى يكشف كل منهم ما تحت يد من يجلس أمامه ، نسوا أنفسهم بالفعل ، فما بالك بما حفظوه من شعر ومحفوظات ! يصيبهم العجز حتى ولو كانوا يعرفون الإجابة . إما أنهم نسوها بالفعل أو أنهم يتشككون فيها ، وعلى ما كانت تدور أسئلة الامتحان ؟ ثلاث بقرات تعطى يومياً لبناً بكمية « كذا » : الأولى ضعف الثانية والثانية تزيد عن الثالثة بمقدار النصف ، احسب كمية اللبن التى تعطيها كل بقرة يومياً أو واجب الأطفال تجاه الأب والأم ، أو - ما أنهار الصين ؟ وما إلى ذلك من أباطيل . . . ياله من رعب ! كنت أرى أن رجال المستقبل هؤلاء سوف يتملكهم الخوف والرعب فى هذه الفصول والامتحانات وسوف يملأون أذهانهم وروعاتهم بالرعب والخوف إلى درجة أنهم سيصبحون رجالاً من نوعٍ آخر عندما يحصلون على الدبلوم أو الليسانس ؛ رجالاً ملأهم الرعب والخوف ، مخازن من الرعب المتحرك ، فالإنسان عندما يكون مدرساً لاينتبه لمثل هذه الأشياء ، فهو الطرف الخصم فى هذه القضية ، فالإنسان يجب أن يكون مديراً يقف على حافة الساحة ، يشاهد ويراقب ويرصد هذه الصفوف من التلاميذ والمدرسين كل يوم وكل شهر ، حتى يدرك ماذا تعنى ورقة الدبلوم أو الليسانس ! إنها تعنى تصديق على أن صاحب هذه الورقة ظل لمدة ١٢ أو ١٥ سنة كاملة يخضع خلالها لضغوط الخوف والإرهاب أربع أو عشر مرات كل عام ، ولم تكن تحركه أى قوى خلال كل هذه السنوات سوى الخوف ثم الخوف ثم الخوف !

ولم أستطع أن أستمر على هذا المنوال أكثر من يومٍ واحد . لأننى رأيت أنه لاقبل لى أن أملك قلب طفل حتى أدرك به ذلك الرعب والخوف الذى ينتاب التلاميذ وأتعاطف معهم . فعشر سنوات من العمل فى مهنة التدريس ، وإعطاء درجات ٧ ، وعشرة ، و ١١ قد أصاب قلبى بالقسوة وجعله كالحجر الصلد . كان هذا حيث قررت رغم كل المقدمات التى ذكرتها أن أنتهى من مسألة مراقبة الامتحانات والإشراف عليها ، ولأعد إلى مكتبى وليكن ما يكون . فلا بد أن ينجح أحد ويرسب أحد فى النهاية . كما جال بخاطرى هذه المرة أيضا أن المدرسين معهم الحق فى ذلك ، لأنهم عندما كانوا تلاميذ فى المدرسة من المؤكد أنهم تعرّضوا للعقاب والضرب والآن جاء دورهم ليعاقبوا ويضربوا . وإذا كنت قد كسرت كل العصى وأدوات العقاب فلا مفر من أن يعاقبوا هم ويضربوا بالدرجات ، فهذه السلسلة المستمرة ليست صغيرة - وليست فى متناول يدك - بالقدر الذى تستطيع أنت أن تقطعها فى مكانٍ ما . فى مدرسةٍ أو فصلٍ أو امتحان .

هكذا صارت الأمور ، حيث بدأت أرى شيئًا فشيئًا أننى لا أستطيع حتى أن أكون مديرًا لمدرسة .

- ١٦ -

قبل العيد بيومين كانت الشهادات مُعدّة وتنتظر توقيع المدير ، ٢٣٦ توقيعًا ، تستغرق على الأقل إلى ما بعد الظهر لتوقيعها ، خاصة أن توقيعى ليس من ذلك النوع الإدارى السهل ذى الخطوط البسيطة المبسوطة ، كما أن يدى لم تتعود بعد على هذا الأمر . فطوال المدة التى قضيتها مديراً لهذه المدرسة لم أوقع حتى على دفتر واحد ، وقبل هذا كنت أحاول قدر استطاعتى أن أتهرّب من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف فى المدارس التى عملت كمدرس بها ، لقد شاهدت الكثيرين من موظفى الحكومة سواء فى الإدارات الأخرى أو فيما بين زملائى المدرسين وهم يتدربون على التوقيع فى أوقات الفراغ ، يمينًا ويساراً ، فوق أى شىء يأتى تحت أيديهم ، ولو تيسر لك أن تقلب نشافة فوق مكتب أى كاتب إدارى فسوف تجد معرضاً لتوقيعاته ، فحتى هو نفسه يعرف أن توقيع الإنسان دليل على شخصيته ، سنتان أو ثلاث سنات صغيرة وسريعة ، ثم خط عريض من اليمين إلى اليسار تحتها ، وتاريخ أصغر من الأسنان ، وتحته خط عريض دون أى تعرج من القلم ، مع دائرة كبيرة يمر من وسطها خط خفيف بكل أبهة وعظمة ، قطعاً كان كل هذا أيضاً فى حد ذاته نوعاً من التمرين على الوزارة ، أما الآن وقد أصبحت مديراً فقد أدركت بساطة الموضوع ، قبل هذا لم يكن فى مقدرتى أن أفهم كيف يستطيع مدير مدرسة ، أو

موظـف بسيط فى إدارة مـا أن يصل إلى الوزارة ، أو أن يراوده الأمل فى ذلك أصلاً ؛ نصف قنطار من التوقيـعات الجاهزة وكل توقيع منها دليل على شـخصـية مـغايرة ، ثم لسـان ناعم لين بطول نصف ذراع تخـرج به الثعـابين من جحـورها ، أو تلعق به أى مكان ، ويد ممدوة دائماً ، لا بطريقـة واحدة ولكن باثنتى عـشرة طريقة . بالضـبط مثل دستة من الشـوك وكل واحدة منها لعمل ما . بإحـداها تلتقط السمكة من داخل سفرة المـاء وتـأخذ فى تقطيعها بأخـرى . . . . كنت غارقاً فى هذا التفكير وأنا أوقّع الشهـادات . . . واحدة تلو الأخرى ، حتى وقعت عيناى فجأة على اسم معروف . كانت الشهادة باسم نجل سيادة هذا العقيد الذى كنا قد اخترناه كرئيس لمجلس الآباء ، كان فى الصف السـادس ، يأتى إلى المدرسة عـلى هيئـة أكثـر هنداماً ووسامـة من المدرسين ، ملابســه مكوية بشكل أفضل من مـلابسهم ، يتـغيّب كل أسبوع يوماً أو يومين معتمـداً فى ذلك فقط على ما فوق كتف أبيه من رتب ، أو أن يأتى كل يوم مـتأخـراً عن زملائه ، ولأن أباه كـان كل شيء فى مجلس الآباء يبـدو أن السكرتير لم يكن ليؤاخذه كـثيراً على أفعاله ، أخذت أتفحص درجاته ، كانت جمـيعها متوسطة ، لامجال فيهـا للتفوق . ودرجة السلوك التى يجب أن تعطيهـا مرة واحدة ومع آخر السنة الدراسية ، . . . لم يكن هناك مفـر . . . فماذا أفعل حتى . . . . ياللعـجب ! وفجـأة تنبهت إلى أننى منذ بداية العـام الدراسى حتى الآن وأنا أحكم على تلاميذ المدرسـة طبقاً لوضع ذويهم وحالتهم

المـادية . تمـاماً مثل هذا التلميذ نجل العـقيد الذى لا يستذكر دروسه اعتماداً على مـا لأبيه من سطوةٍ أو جاه . أدركت أننى طوال هذه المدة وأنا أعتبـر التلاميذ أكثـر ذكاء إذا كان ذووهم يعانون من فقـر أكثر ، وبقـدر مـا لذويهم من فـقر يـكونون أكثـر تقبـلاً للتربيـة والتهـذيب والتعليم ، ويحضرون إلى المدرسة بعيون متفتحة وأذهان أكثر اتقاداً ، أما أولئك الذين يعـتبرون ذويهم من الأغنيـاء فهم أكثـر من الآخرين كسلاً وتخـريفاً وبلاهة وتوتراً ، تبعث حالتـهم على الأسى واليأس . لم يكن للسكرتير بالقطع أى عـلاقة بهذا الموضوع . كان ينفذ حـرفية تقليد وقانون كان قد وضعه لنفسه فى العمل ، تماماً مثلما كان يتصرف مع نجل هذا العقـيد ، يغمض عينيـه عن تلميذ ، ويتشـدّد مع آخر ، وبعد يومين يـفعل العكس . كان خـلاصة للخـوف والرجاء ، هكذا كانت تسير أمور المدرسة . أما أنا . فـقد كان الوضع بالنسبة لى كأنى قد حكمت حكمـاً مسبقاً على التـلاميذ . وكم كان حـسناً أن جميع الدرجات لم تكـن فى يدى حتى تلك الدرجة التـى كانت فى يدى ، وهى درجة السلوك ، لم تكن تمنح إلا فى نهاية السنة الدراسية . كنتُ قـد سمـعت أن المدارس العسكرية تمنـح فيـها درجـات للطالب على انضباطه فى مـلبسه العسكرى ومظهره العـام . ورأيت عندها أن الأمر لو كان بيدى فى ذلك لكنت قد منحت الدرجات بناءً على وضع الآباء المـالى وثرواتهم . والمضـحك فى ذلك أيضاً أننى كنت أريد أن أقـهر الفقر وأقـتله بتصرفى هذا ، وتنبهت أخيراً إلى أن هذا كـان يعد نوعاً

من توجيه الفقر وليس إدانة له . كنت أكره الغنى فى الآخرين ، لأنه يعتبر السبب فى فقر هؤلاء الفلاحين والخدم ،لهذا السبب كنت أحاول أن أسحقه وأقتله .

لكن هل كنت أقوم بعملٍ صحيح بين حوائط هذه المدرسة الأربعة ؟ .. أكثر ما يثير السخرية أن يحاول الإنسان أن يعدّل الأوضاع ويصلح الأمور ، لكن فقط فى تلك الحدود التى لاتخرج عن حيِّز رأسه وتفكيره . وحتى مدرستى - حدود عملى هذا وحدود مسئوليتى - لم تكن هى الأخرى تخرج عن حيِّز تفكيرى ، وينتهى بها الأمر داخل ذهنى وتفكيرى ! والوضع الذى نظمه الآخرون لهذه المدرسة كان قد أخرجها من مجرد كونها حيزًا جغرافياً . بهذه الطريقة أصبحت أدرك بعد خمسة أشهر أو ستة أن حساباتى لم تكن تتسم بالمنطقية ، كانت عاطفية ووجدانية . كنت قد سمعت من أكثر من مصدر أن السكرتير كان قد تحصَّل على أموال عديدة وعندها توصلت إلى نتيجة مع نفسى وهى « أن هذا يعد تكفيراً عن الذنب الذى فعلته أنت » ! من الأساس والمدرسة تسير على نفس هذا المنوال ، فضعفى الإنسانى وعواطفى الطيبة كانت تعوضها قسوته العملية وشدّته وتشدّده ، وهذا ما جعلنى لا أستطيع أن أتغاضى عنه بشكل كامل . كان رجلاً عملياً يتحمل المسئولية ويمضى قُدماً . فكل خطوة كان يخطوها فى الحياة أو فى أى عمل كانت ذات هدف بالنسبة له ، يضعه نصب عينيه ويغمضهما عن باقى جوانب القضية ، وهذا ما جعله فى

تقدمٌ مستمر أما أنا فلم أكن أستطيع ذلك . لمـــاذا لم أكن أصلاً مديراً للمـدرسة ؟لم أكن أستطيع أن أكـون كـذلك . انتهى . . . . كـانت شهادة نجل العقـيد قد بللها العرق تحت يدى ، فأخذت أجـففها بكل حيطة ودقـة وكان التـوقيع الذى وقعـته أسفلهـا سيء الخط ، ومشـيراً للسخـرية إلى حد ما - ذكّرنى بتـوقيع فرّاشنا الجـديد - من المؤكد أن سيادة العقيد سوف يقول لنفسه « لمـــاذا جعلوا مثل هذا الإنسان الجاهل وبهذا الخط والتوقيع مديراً لمدرسة »، فأى جناب عقيد يعرف حتمًا أن توقيع الإنسان دليل على شخصيته .

- ١٧ -

مع نهـاية عطلة أعـيـاد النيـروز ذهبت لزيارة المدرّس النحـيل ، مـدرس الصـف الثالث ، ولمـا كـان السكرتير على علاقة غيـر طيبة مـعه اضطررت لأن أتفـق مع مدرس الحـساب فـى الصفين الخـامس والسـادس لأنه كان على علم ببـعض تفاصـيل هذه الحكايات ، وعن طريقه أيضـاً عرفت عنـوانه ، وفـى أى سـجن هو وإلى أى معـتقلٍ ذهب .

فى طريقنا وقبل أى شىء أبلغنى أن مدير المنطقة التـعليمية قد تم تغـيـيـره ،وكمـا هو شـائع فـإن الذى حل مـحله هو أحـد زمـلاء دفعتى . قلت : –

– « عجيبة ! ليه ؟ هو المدير السابق ما كانش مالى مركزه ؟ » .

– « أقوله إيه . . . بيـقولوا عمل رأسـه برأس أحد النواب . هو سيادتك ما تعرفش ؟ » .

– « إزاى ؟ أعرف منين ؟ » .

– « مفيش . . . بس بيقـولوا إن اتنين من اللى ساعدوا أخينا فى حملته الانتخابية كانوا بيأخدوا راتب من خزنة الإدارة التعليمية ؛ وفى ليلة العيد منع مدير المنطقة صرف مرتبهم » .

- « عجيبة ! هو كمان كان عايز يصلح الأمور ويعد لها ! مسكين . ».

بعدها ، أخذنا نقول : الحمد لله أن المدرسة تعمل فى هدوء وانتظام وأن المدرسين متعاونون . وأخذ يفهمنى تلميحاً أن السكرتير قد أصبح كل شيء في المدرسة وبشكلٍ أكثر من اللازم . وفهمت أنه حتماً وجد له زبوناً آخر جديد يعطيه درساً خصوصياً ، مما أثار حفيظة الزملاء وعلا صوتهم ، بعدها حوّلت الحديث إلى حياة مدرس الصف الثالث الذى تقرر أن يوقف راتبه بداية من الشهر القادم ، وكذلك دراسته فى كليته التى كانت قد انقطعت منذ مدة . وعلمت أن لا أهله يرسلون إليه شيئاً من بلدته لأنه لايوجد وسيط بينهما ، ولاحتى أى جمعية أو هيئة تقدّم له مساعدة . ولم يكن له بالفعل سوى نفس الطعام الذى يقدمه السجن ، ولحسن الحظ أنه لم يكن يدّخن . . . وما إلى ذلك . . . .

وعلى باب السجن تزاحم الزائرون . زائرون من جميع الأهالى والطبقات ؛ أصحاب طواقى مخملية وبنات عم مختمرات وخالات حبيبات مع أطفالهن كان بينهم حتى اثنان من المشايخ الأشراف ذوى العمائم السوداء . كتبنا الاسم واسم الأب واسم الأم ورقم البطاقة الشخصية ومكان صدورها ، وأخذنا دورنا حتى كلّت أيدينا ، وكلّت أرجلنا تحت وطأة ثقل الحمل الخفيف الذى كنا نحمله معنا ، وداعبنا النعاس حتى وصل دورنا ، ومن حجرة إلى أخرى ، ومن هذا الممر

إلى ذاك ، وعند كلٍ منها تفتيش عن شيء فينا ، أو تفحص . وأخيراً درج حديدى وفوقه مدرس الصف الثالث و . . . ياللعجب لقد سمن وتضخّم ! أصبحت له هيئة رجل يملأ مـلابسه تماماً . ورغمًا عنى قفز إلى ذاكرتى مدرس الصف الرابع الذى مـازال حتى الآن فى الجبس . وغمرتنا البهجة ، وأخذنا نسأله عن أحواله ، وجاء السجّان وأخذ منّا اللفافات ، ماذا أقول بعـد . . . ؟ هل أقول له : لمـاذا ألقيت بنفسك فى هذه المشكلة ؟ واضح أن وضعه هذا كان أحسن بالنسبة من المدرسة والفصل . تغيّر لون إحـدى يديه ، واضح أن الجروح قد ملأت ذراعه تحت كم سترته من معـصمه إلى ما فوق . لكنه امتلأ جـسماً ولم يعد يهتم بمثل هذه الأمـور . متذرع بالإيمان وهذا كل ما كـان لديه ، وقد جعله هذا يتـحمّل فى صبـر . سعيـد الحظ فلم يكن الجزع يصيـبه ، وأصبح السجن عـلى الأقل بالنسبـة له مـجرد فصـل دراسـى . سألته فى النهاية : -

- « همه وضـبوا لك القـضيـة ولا أنت لسه لغاية دلـوقتى رهن الاعتقال ؟ » .

- « حققوا معايا حضرتك وكان أسهل من الميه ».

- « يعنى أيه » .

- « يعنى إنى مش رهن الاعتقال دلوقتى . لأن اسمى حطوه فى قائمة المسجونين . وارتحت كده ، لأن المتاعب خلصت خلاص . »

ماذا أقـول بعد ذلك ؟ رأيت أنه لاشيء لدى أقوله ، فاسـتأذنت وودعتـه ، وتركته مع مدرس الحـساب وحدهما وخـرجت ، أخذت أتمشّى عند باب السـجن حتى تنتـهى مدة الزيارة ، وأخـذت أفكر فى السجن الذى صنعـته حول نفسى ، أقصـد هذا المبنى الذى أنشأه ذلك الرجل محب العلم والتعليم . وسجنت نفسى فيه بكل إرادتى وصميم رغبـتى . فأخيـنا هذا المسجون قـد جاؤا به إلى هذا السـجن بضرب الهراوات ، إذن فهو مضطر لأن يعيش وهو مرتاح البال والخاطر . أما أنا فقد ذهبت إلى سجنى بإرادتى ورغبتى ، وماذا أفعل الآن ؟ وكيف سيكون السكرتير بعدى ؟ وإذا كان أحد زملاء دفعتى قد أصبح بالفعل مـديراً للمنطقة التـعليـميـة ، فكيف أذهب إليـه وأطلب منه أن يضع السكرتير فى مكانى ، أو مدرس الحســاب هذا ؟ هكذا أخذنى التفكير حتى جاء مدرس الحساب وغادرنا المكان. لم أنطق معه بكلمة أخرى ، ومع أول تقاطع ودعته ، وأخذت تاكسى وتوجهت مباشرة إلى المنطقة التعليمية .

رغم أنه كـان اليوم العـاشر من أيام العـيد ، إلا أن زحام الـعام الجديد لم يكن قـد انقطع بعد ، حركة وذهاب ومجـيء وتبادل الشاى والحلوى . عام جديد ، ومدير منطقة جديد ، قران السعدين ! دخلت وسلّمت عليه وهنّأته وقـدمت له كل المجاملات ، نعم كان هـو نفسه أحد رفاق الفـصل . عندما كنا معاً فى نهاية الصف الثـالث تحديته أن يحفظ بيـتين من لامية العرب ، لكنه لم يسـتطع ، نعم لم يستطع .

واضح أنه لم يفهم حتى عبارة « قران السعدين » التى قلتها له فى تهنئتى ، والتى يفهمها أى متسول يقرأ « يس » فى الشارع . أما الآن فقد أصبح هو مديراً للمنطقة التعليمية وأنا مازالت مديراً لمدرسة . حقيقى - يا للأسف وياحسرتى ! فحتمًا كان لابد أن أكون أنا وزيراً لمثل مدير المنطقة هذا !

كان المكتب مثلما كان من قبل نظيفاً مرتباً ، مثل حجرة استقبال فى منزل عروس تزوجت حديثاً ، أما منفضة السجائر فقد امتلأت بالرماد وأعقاب السجائر . لأن السيجارة لم تكن تفارق يده . قام من مكانه ، وتبادلنا الأحضان والقبلات ، وأفسح لى مكاناً إلى جانبه وتبادلنا الحديث عن موظفى التربية والتعليم و « التهنئة الحارة » و « بتوفيق الله » و « فيض الكريم » وحكايات قديمة كانت بيننا ! وتذكرنا اثنين من زملائنا كان جسماهما يليق بحلبة مصارعة ، أو يمكن أن يكونا من هؤلاء الذين يقفون إلى جانب صناديق الانتخابات لتوزيع الحلوى على الناخبين . «يمكن يكونوا همه نفسهم الشخصين اللى تسببوا فى تغيير مدير المنطقة السابق » . كدت أن ألقى بالحلوى التى كانت فى يدى فى طبقه ، لكن رأيت هذا حمقاً شديداً . ولما انتهيت من سيجارتى سألته هامساً عن حكاية مدير المنطقة السابق وهذين الشخصين ، فلم ينطق بكلمة . فقط نظر إلىَّ نظرة شبيهة بالتماس واستعطاف . وانتهزت الفرصة لكى أوضح له وضع مدرس الصف الثالث ، وأطلب منه أن يعمل ما فى وسعه لكى لا يتوقف راتب هذا المدرس . وبمجرد خروجى تذكرت من جديد أننى كنت قد ذهبت لمدير المنطقة التعليمية لسببٍ آخر .

- ١٨ -

فضيحة أخرى ظهرت بالأمس . فليس من المعقول أن نظل طوال شهر أبريل فى هدوء وسكينة . وجاءت بداية شهر مايو لتعلق معها نواقيس وأجراس الفضائح على سور المدرسة ؛ فمع قرب انتهاء يوم دراسى ، دخل إلى مكتبى زوجان أب وأم يتوسطهما طفلهما ، الأب يشتعل من الغيظ ، والأم ذهب لون وجهها من الذهول ، وطفلهما يشبه تماماً تلك الدمى التى تتكلم ، ألقيا بالتحية وجلسا ، يا إلهى ماذا حدث ثانية ؟ لقد ضقت ذرعاً بهذا الوضع وكدت أنفجر ! فبمجرد أن آخذ قرارى بأن أترك الأمور على حالها ، لاتتركنى الأمور والمشاكل فى حالى .

- « شرفتنا حضرتك والهانم . لعل السبب خير ! .

أشار الرجل إلى زوجته ، فنهضت وأخذت ابنها فى يدها وخرجت ، وبقيت أنا وأبوه ، كان الغيظ والنفور يملأه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وأنا كلى تساؤل . لكنه لم ينطق ببنت شفة ، كأنه يعطى لنفسه الفرصة حتى يتخلص من عصبيته ، تعجبت لذلك ! أخرجت علبه سجائرى وقدمت له واحدة ، فردّها بحركة وكأنه يهش ذبابة سمجة من فوق أنفه ، فكرت وأنا أشعل سيجارتى أنه حتماً لديه ما يؤلمه حتى يجلس بهذه الطريقة ، ويحضر إلى المدرسة معتمداً على

أسرته بأكملها ، حتماً هناك أمر خـطير عبأً له كل القوى . سألته مرة أخرى :

- « طيب ! حضرتك تأمر بأيه دلوقتى ؟ .

وانفجر فجأة ليقول - « أنا لوكنت مدير مدرسة ويحصل كده فى مدرسـتى ، كنت انتحـرت ، لازم تتكسف على دمك ياراجل ! روح قدم استـقالتك عشـان الناس ما يجوش يقطعوك حـتت . فتح ودانك كويس . علشـان ولاد الناس بييجوا هنـا عشان يتعلّمـوا ويتأدبوا مش عشان. . . »

- « إيه الكلام ده ياراجل إنت ! لازم تحاسب على كلامك ! »

وتحركت لكى ألقى به خـارج الغرفة . لكـن فى النهاية يجب أن أعرف ما الذى جعله فى هذه الحـالة . عليه اللعنة ! أفى مكتبى وأثناء أدائى لوظيفتى يسبنى بمثل هذه الألفاظ ، وبهذه الطريقة يخاطب مدير مدرسة . لعله نسى أن مصير عام كامل على الأقل من عمر ابنه معلق بإشارة منى ، رجل مثلى له هذا الجسم يمزقـونه تحت سيارة ولا يوجد من يقول لهم مـاذا تفعلون ؟ وهذا الشاب مؤكـد أنه لم يربط كلباً فى فمه هكذا بدون سبب . ولكن ماذا يريد منى فى النهاية ؟

- « ضاعت كـرامتى وضاع شـرفى ، ضاع شرف عـائلتى لمـائة سنة قدام ، مـاكنش ابن ابويا لو ما قفلتش مدرسـتك دى من بابها ، طب أعـمل إيه أنا مع الـعـيل ده ؟ دا شـرف الناس فى المدرسـة دى

مالوش أى قيمة . الشرطة فى المخفر فهمت. والطبيب الشرعى فهم ، واتعمل محضــر وقضية من خمسين ورقــة . وأنت جاى دلوقتى تقول لى لازم تحاسب على كـلامك ؟ كلامى اللى بحسـاب دلوقتى هو إن الكرسى ده والمنصب ده كبـير عليك قوى . كلامى اللى بحـساب إنى أسلمك عشان يحاكموك ويقطعوا عيشك . . . »

كان يتحدث هكذا وأنا أرد عليه ، ووقـعنا فى بعضينا مثل كلبين أخذهمـا السُعار ، حتى انفـتح الباب ودخل السكرتير . لقـد أنقذنى بالفعل. فلو كان قد تأخر دقيقة واحدة، يعلم الله ماذا كان سيحدث . فبـينما كنت أنا وهو نتبادل السـباب كانت الأم قـد ذهبت بطفلها إلى السكرتير وحكوا له الحكاية بشكل أكثر صراحة ووضوحاً . وأرسل هو ليسـحبـوا الفاعل ويجـرجروه خـارج الفصل . . . وشرح لـى كيف نضرب الجرس ونأدبه أمام التـلاميذ ، وفعلنا هذا بالطبع . بمعنى أننى دخلت إلى الساحــة بالفعل هذه المرة . كان الفاعل ولداً فـحلاً ، من تلاميذ الصف الخامس بملابس مهندمة ،ووجه أبيض مشوب بحمرة ، يافع القد . كان من الممكن أن يكون مفـعولاً به أفضل بكثير من تلك الدميـة الناطقة . لم يكن ينتظر حتى أن يقـال له أنت ، سحبتـه أمام التلاميـذ وأنا أكيل له الضربات لكماً وركلاً ، ثم هشّـمت فوق رأسه وجسـمه ثلاثة عـصى أسرع الفـرّاش الجديد بإحـضارها من الحـديقة المجاورة . هكذا تمـلكتنى الوحشـية إلى درجة أن هذه العـصى لو لم تكن قد أُحـضرت لكنت قتلتـه حتى تدخـّل السكرتيـر وأنقذه من بين

يدى ، وحملوه جـثة هامدة إلى داخل مكتـبى ، وصرفوا التلامـيذ ، ولمـا عدت إلى مكتـبى ، وارتميت فوق مقعدى فـى حالة مزرية ، لم يعد هناك أثر لا للأب ولا للأم ولا حـتى لدميتهمـا الناطقة التى ضاع شرفها ، أحسست عندها أن كل هذا الضرب كان لابد أن أوجهه له . كنت أتصـبب عرقـاً ، والمرارة تملأ حلقى . فكل السـباب الذى كـان يجب أن أوجهه لذلك الرجل العنّين كـان قد ترسب فى حلقى ليصبح مراً مثل ذيل ثعبـان . . . . « لمـاذا وصل بى الأمر فى النهاية لمثل هذا اليوم ؟ كلب مسـعور تنهش فى جسد ابن الناس ! » لمـــاذا ضربته أنا أصلاً ؟ لمـاذا لم أترك الأمـور - مثلما يفعل السكرتيـر دائماً - تجرى على أعنتهـا ، حتى تنتهى إلى الصـلاحية وتبرد حـميتهـا . مالى أنا والحفـاظ على شـرف أطفال الناس ؟ هل نصّـبونى مـديراً للمـدرسة لحراسة ملابس التلاميذ الداخلية ؟ فمدرسة مثل هذه وسط الصحراء أو فى أى مكان آخـر ، وفـصل الربيع وأطفـال فى مـرحلة البلوغ ، أى مدير أنت ، ومـاذا تدير ، وما الذى يفرقك عن أى حمـار آخر ؟ من المؤكد أن هذا الولد لايستطيع حتى أن يلعب مع ابنة عمه ، ويوجد فى عائلتهم حتماً بنات عشرة ، ١٢ سنة يجب أن تحتجبن عن الصبيان فى مثل سنهن .

« أتظن أنك بهذه العلقـة تداوى وتعالج أمراضاً كـثيرة . . يالك من أحمق ! إذن لمـاذا ضـربته ؟ مالـك أنت وهذا ؟ وياله من ضربٍ عجـيبٍ كان ! كأنه القـتل ! . . . ألم يفعل فعلة مـشينة ؟ . . . »

وتنبّهت فجأة إلى أنني يجب أن أذهب لأرى أي بلاء أوقعته عليه نهضت وناديت أحد الفراشين . واتضح أنهم قد صرفوه . أحضر الماء وصبه على يدى وغسلت وجهى ، وحاولت ألا يرى ارتعاشة يدىّ . وأخذ هو يسر لى فى أذنى بكل هدوء أن الولد نجل مدير فى شركة النقل العام ، وأنه عوقب وضرب بشكل صعب ، ولايعلم من أى مكان كانوا يغسلون دمه الذى سال ، وأوصلوه منزله ، وما إلى ذلك من حسن الخدمة .... يالك من أحمق ! ... وكأنه أخذ يفرغ ما فى قلبى . لم يكن يعلم أننى أخذت قرارى منذ البداية ، ثم أصبحت مثل كلب مسعور . وأدركت بعدها أننى ضربت شخصاً كان أهلاً لهذا الضرب . لقد اقتلعت من جميع أعضاء بدنه نهمه وشرهه للطعام ليل نهار ، وتربيته المدلله ، باللكمات والركلات وألقيت بها بعيداً . من المؤكد أن هذه المرة الأولى التى يرى فيها مثل هذه اللكمات والركلات.«يالك من جحشٍ أحمق ! بلغت مرحلة البلوغ ، فلماذا لاتذهب وتستمنى مثلما يفعل الجميع ، حتى لاتوصل أمر ابن الناس إلى الشرطة والطبيب الشرعى بهذه الطريقة ؟ وفى مدرسة أكون أنا مديرها » . من المؤكد أن مثل هذه الأمور تحدث فى أماكن أخرى ، لكن من المحتّم أن الآخرين يتستّرون عليها . فهم ليسوا مثل هذا الأب وهذه الأم الحمقى اللذين قاما بقرع ناقوس فضيحتهم ، يالها من فضيحة جُرّسا بها ! أيخلع إنسان ملابس ابنه الداخلية ، أو على حد قوله شرف أسرته ، ويلقى به هكذا على قارعة الطريق لتتفحصه الشرطة المحلية والطبيب الشرعى ! حتى يجرى التحقيق ويتم إثبات

ماذا ؟ هـل لكى تكتمل جـوانب القضـية ؟ لمـاذا وضـد من ؟ ألكى يقطعوا عـيش مدير المدرسة ؟ لتحـقيق هذا الأمر ليست هنـاك حاجة لقضـية آداب . فـشعار واحـد للمطرقة والمنجل تحـت صورة من هذه الصور لمقـابر الهخامنشـيين يكفى لتحقيـق هذا الأمر . لعنة الله على رؤوس الحمقى ! من مـثل هؤلاء الآباء والأمهات حقـيق بالأطفال أن يولدوا شـواذاً ونشّالين ولصـوصاً وكـذابين . وهذه المدارس يجب أن تفتح أبوابها أولاً للآباء والأمهات ، كم كان قلبى يود لو أننى طحنت «أخينا» هذا بفمه المفترس تحت لكماتى وركلاتى . . . مع هذه الأفكار وصلت إلى منزلى . بمجرد أن فـتحت زوجتى البـاب برقت عيناها ؛ هكذا كانت دائمـاً عندما يعتـريها الخوف ، ولكى لاتـظن أننى قتلت أحداً ، أخذت أروى لها ما حدث ، ورأيت أن الواقـعة قد ألجمتها ، بمعنى أنها ظلت ملتزمة للصمت . ماء بارد ، عرق يتصبب ، سيجارة وراء أخرى ، ولافـائدة ولم تكن اللقـمة تنزل من حلقى ، ومـازالت يداى ترتعشـان ، وكانت كل واحدة منهمـا وكأنها ظلت تعمل لـشهر متواصل . بدأت فى سيجارتى الرابعة :

- « تعرفى ياست ؟ أبو الولد غنى . مؤكد إنه هيوصل الموضوع للنيابة والمحكمـة والمواضيع الزفت دى . الفاتحـة على منصب المدير ، لكن قلبى عايز قوى إن القـضية توصل للمحكمـة . سنة بحالها وأنا بحط فى قلبى واسكت ، تـعبت بقى . قلبى عـايز حـد يسألنى ليـه ضربت ابن الناس بالشكل ده ، ليه أصلاً عاقبته عقاب بدنى ! لأ دا أنا بقى مدير مدرسة وعنده كلام لازم يقوله فى أى مكان . . . . »

سمعت هذا وقامت فى اتجـاه التليفون . واتصلت باثنين أو ثلاثة من أصـدقائى الذين يعـملون فى النيابة ، وقـمت أنا برواية تفاصـيل القضية على مسامعهم حتى يكون لديهم علمٌ بها .

فى الغد التالـى لم يحضر الولد الفاعل إلى المدرسـة ، وأخبرنى السكرتير أن القضية تتلخّص فى أن الولدين - الفاعل والمفعول - كانا يذهبان معاً إلى منزل الفاعل بحجة التفرج على مجموعة الطوابع التى يمتلكها وأن الأمـور كانت تحدث هـناك ، وفضيـحة وتدخل من والد ووالدة الطرفين والتليفون والعنوان ومركـز الشرطة ليلاً ، وعلم بالأمر جميع أهالى الحى . وكان رأيه هو الآخـر أن الأمر سوف يصل للنيابة وظللت أنا لمدة أسبـوع كامل أذهب إلى المدرسة صـباحاً وعـصراً فى انتظار إخطار النيابة واقفاً خلف الزجاج مثل تمثال نبوخذ نصر .

لكن طوال هذه المدة لم يصـلنا أى خبـر لا عن الفـاعل ولا عن المفعول ، ولاحتى عن ذلك الأب والأم المـؤتزرين بالشرف ، ولا عن مدير شركة النقل العـام . وكأن شيئاً لم يحدث . والتلامـيذ يحضرون وينصرفـون ؛ يتسارعـون لشرب المـاء ، يتـساقطون على الأرض كل دقيقة ، وبدلاً من اللعب يضربون بعـضهم بعضًا ، والمدرسون لازالوا فى تأخيرهم لدقيقتين أو ثلاث وسيرهم فى تباطؤ ، والسكرتير يتنقّل مع طرقعـة كعب حذائه مـثل بسمـارك ليقوم برتق الأمـور وفتقـها . وبقيتُ أنا وحـيداً مع عالم من الكلمـات والانتظار . حتى وصل فى النهاية . . . أمر بالإحـضار مع تحديد الوقت ، بعد يومين فى الشـعبة الفلانية وأمام وكيل النيابة الفلانى . أخيراً ظهر من يُنصت لكلامى .

- ١٩ -

طوال اليـومين التاليين وحـتى موعـد الإحضار . لـم أخرج من المنزل أصـلاً . جلست وكتبـت كل ما لدى من أقـوال فوق الورق ، أقوال وكلمات وحكايات بكل التفاصيل التى يستطيع معها وزير تعليم أن يضع خطة عمله لسـبع سنوات مقبلة ، وفى الموعـد المحدد ذهبتُ إلى النيـابة ؛ المكان المحدد ،. ووكـيل النيابة المحـدد . فتحـت الباب وألقيت بالتحية ، وبمجرد أن أخذت أعرفه بنفسى وأخرج أمر الإحضار مد «أخينا» يده إلىّ ليصافحنى ، وأحـضر كرسياً ، وأوصى بالشاى ، و « لا داعى لكل هذا الكلام ، والقـضيـة أصغر مـن هذا ، وقد تم حلها ونحن لم نرض أن نتـعبكم .... » حيث اسـتقر العـرق البارد فوق بدنى كمـا هو . وبعد أن شربت شايى .. كتبت اسـتقالتى على نفس ورق النيابة الذى يحمل شعارها ، وألقيتها فى أول صندوق بريد باسم زميل فصلى الغبى الذى أصبح حديثاً للمنطقة التعليميّة .

انتهى ....

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل



مدير مدرسه

جلال آل أحمد

إن أهم ما يميز جلال آل أحمد فى كتاباته أنه يتمثل الإسلام فى كل أعماله تقريبًا . كما أنه حج إلى بيت الله الحرام . ووصف رحلة حجه فى كتابه «خسى درميقات : قشة فى الميقات» . وكان من أهم من وضعوا أساس الفكر الإسلامى الجديد فى إيران . وقد أدى اهتمامه الخاص بالطبقات الشعبية وأهالى السوق والحارة إلى أن اعتبره النقاد كاتبًا ومفكرًا اجتماعيًا . إلا أنه يجب الاعتراف بأن المشاعر والأحاسيس كانت هى المحرك الأول فى أعماله الأدبية أكثر من المعلومة المعرفية . ويدل هروبه وجنوحه إلى السياسة والدين وتردده بينهما على أفكاره المتصارعة دومًا . إلا أنه يمكن القول - بحسم - إن الأخلاق بين مواطنيه كانت
إلى إدانة هذا الفساد ومحاكمته بشكل جاد ومتعص

ويتميز أسلوب جلال آل أحمد - فى كل أعماله القصص
باستخدامه المفرط لصيغ الكلام ، ويمتد ذلك إلى الع
الوصفية . كما أننا لا نستطيع أن نميز بين الحوار المباشر
المباشر فى قصصه . وفوق ذلك فهو سيد الاختصار والا
فى التعبير . وهو يصور شخصياته عند ظهورها باختصار ، و
تأتى إلى الحياة من خلال حديثها .